معطيات التوكيد الدلالية دراسة تحليلية في سورة يوسف

د.علي عبدالفتاح
كليةالتربية/ جامعة بابل

توطئة

الحمدُ لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الخلق أجمعين محمد المصطفى الأمين وآل بيته الطيبين الطاهرين ، وصحبه الغر المنتجبين ، وبعدُ:

فإنَّ اللغة العربية تنماز بتنوع أساليبها في التعبير ، وتعدد صور الأسلوب الواحد منها ، ولا تقف الصورة الواحدة على ضرب واحد من النظم ، بل تأتي تلك الصورة – أيضًا – على ضروب من التركيب والنظم والتآلف ، مما يجعل من العربية زاخرةً بأساليبها وصورها وضروبها وتراكيبها ونظمها وتآلفها.

ويعد التوكيد من بين تلك الأساليب الرئيسة التي زخرت بها صور الجملة العربية وتراكيبها ، وله الأثر البالغ والمقصود في دلالة النص ، فهو أسلوب لغوي غايته التحقيق وإزالة التجوُّز في الكلام ، يقوِّي به المتكلم عبارَتَه لتوثيق صدقه حينًا ، أو لأنه يعرف أنه يكذبُ ويريد من السامع أن يصدقه حينًا آخر ، مستعملاً الأداة تارةً وغيرَها تاراتٍ ، بحسب مقتضى الحال. فقد يستدعي ذلك استعمالَ مؤكِّد واحدٍ فيكون الخبر طلبيًّا ، وقد يستدعي استعمال أكثر من مؤكد واحد فيكون الخبر إنكاريًّا ، وهذا بخلاف النص المقابل الخالي من التوكيد الذي يسمى الخبر فيه ابتدائيًّا. وقد زخرت سورة يوسف (عليه السلام) بأسلوب التوكيد في جملها وعباراتها وتراكيبها ، ولعلي لا أُبالغ إن ذهبت إلى أن من جوانب إعجاز هذه السورة المباركة ذلك البناء اللغوي والبياني الذي يمثله أسلوب التوكيد فيها. فهي سورة حية نابضة متحركة – والقرآن الكريم كله كذلك - تتسارع فيها الأحداث والوقائع وتستمر فيها المحاورات والمشاورات وطرح الرؤى واختلاق الحجج ، وسوى ذلك مما يجعل من التراكيب اللغوية سبيلاً يدفع بالقارئ إلى أن يلتمس الوجه البياني الرائع الذي يصوره أسلوب التوكيد.

وقد بحثت في استجلاء معطيات هذا الأسلوب – وسواه من أساليب التعبير ذات الصلة – الدلالية في نصوص السورة المباركة بحسب تسلسل آياتها من أولها إلى آخرها تحقيقًا لفائدة التعايش مع أحداث هذه القصة بشكل مفصَّل مرتب ومنظم لنقف بذلك على حقيقة أثر أسلوب التوكيد وما يصرف إليه في نص هذه السورة من دلالات إيحائية تسرح بالقارئ في فضاء التأمل والتدبر والاستنباط. معتمدًا ما لدي من حصيلة علمية في ضوء المعرفة القرآنية واستعانة بنص القرآن الكريم نفسه برد الآية إلى أختها وفهم النص في ضوء سياقه وسوابقه ولواحقه ، مبتعدًا عن الأخذ بتلك التأويلات والتحليلات والآراء الكثيرة التي قيلت وكتبت عن سورة يوسف (a) إلا ما وجدته مناسبًا ومساعدًا في البحث ، إذ ليس كل ما يُدرَس ويُكتب يكون بحثًا إذا كان تقليدًا وتسليمًا لما كُتب في المصادر السابقة وترديدًا لما قيل من آراء. فالقرآن متجدد حي ، وقد حثنا الله تعالى على التدبر فيه بقوله عز وجل: **(أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا)** [محمد/ 24]. فكان هذا البحث وما توفيقي إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أُنيب ، وله الحمد أولاً وآخرًا ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين.

1- كلامه تعالى عن نعمته الكبرى (القرآن الكريم) :

قال تعالى: (**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُون**) [2].

بسبب من عظمة الخالق مُنزِلِ القرآن الكريم ، وسمو شأن هذا المُنزَل ورفعة قدره وأثر هدْيه وإرشاده افتُتِحَ هذا النصُّ بأداة التوكيد (إنَّ) التي لها أثر بلاغي في توكيد النص الذي ترد فيه[1] **(1)**. وقد استدعى المقام ابتداءَ هذا النص بالتوكيد ردا على اليهود وسواهم ممن اتهم الرسول الكريم (h) بافتعال القرآن من عنده أو بأنه لا علم له بأحوال الأنبياء والأمم السابقة[2] **(2)**. فإنكارهم صدق النبوة ومعجزتها اقتضى الرد عليهم بنص مؤكد ردعًا وتبكيتا لهم. وقد ورد اسم (إنَّ) وهو ضمير المتكلم (الله تعالى) بصيغة الجمع دلالة على التعظيم ، وأن الله تعالى هو وحده العالم بالغيب ، وهو الذي يوحي من غيبه ما يشاء - ومنه قصص الأنبياء والأمم السابقة – إلى رسوله الكريم (h)، فهذه الأمور الغيبية تحتاج إلى توكيد لترسيخ صدقها في أذهان السامعين والمقصودين بالخطاب. وإن سمو شأن اللغة

---

[1] هوامش البحث:

(1) ينظر: الكتاب ، سيبويه2:311. والأصول في النحو ، ابن السراج ، تح: د.عبدالحسين الفتلي1:266. واللمع ، ابن جني ، تح: حامد المؤمن104. والمقتصد ، الجرجاني ، تح: كاظم بحر المرجان1:488. والمفصل ، الزمخشري293.

[2] (2) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، عبد الله بن عمر البيضاوي ، تح: عبدالقادر عرفات العشا حسونة1:271. ومدارك التنزيل وحقائق التأويل ، أبو البركات عبد الله النسفي2:177.

العربية وكون القرآن الكريم قد نزل بها على نبي عربي في أمة عربية اللسان لينطلق بدعوته إلى العالم بأسره أمرٌ في غاية الخطورة ، يستدعي تفنيد مزاعم كل مفتر ومعترض على نزول القرآن بهذه اللغة إذاما خطر بباله – كبرًا وانحرافا – أن التوراة نزل بالعبرية والإنجيل نزل بالسريانية وقد عني أنبياء بني إسرائيل وأممهم بهذين الكتابين المقدسين تكليفا وحملا وعملا وتبليغا ، فلمَ يُعدل عن لغتيهما إلى اللغة العربية ؟ فجاء هذا النص مؤكدا ليوحي – مما يوحي به – بأن اللغة العربية لغة مقدسة وذات بيان وتأثير ، يهدي بيانُها البشر إلى الرقي والسمو ، ويقصد بهم نحو الإنسانية والآدمية التي خُلقوا عليها ولأجلها ، ويُبعدهم عن النزول إلى مراتب الحيوانية والبهيمية إذاما التزموا منهجَ القرآن الجلي وعملوا بأوامره ونواهيه ، ومن يلتزم هذا المنهج فهو العاقل السليم القويم وهي السمات التي يريد اللهُ تعالى للإنسان أن يتحلى بها. أما من يحيد عنه ويعدل فهو دون العاقل الذي خلق ليعقل ولم يُرِد ذلك.

2- كلامه تعالى لرسوله الكريم (h) حول القرآن وقصص السابقين:

قال تعالى: (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِين) [3].هذا رد على مزاعم المبطلين المعاندين ممن خسروا أنفسهم وأضاعوا خير الدارين عندما أنكروا نبوة الرسول الكريم **(h)** وادعوا افتعاله القرآن ، فقد تضمنت هذه الآية الكريمة هذا الرد الجلي الواضح الذي يبعث الثقة المطلقة في نفس الرسول الكريم **(h)** فما نزل عليه إنما هو بوحي الله تعالى ، لا من عنده ، وقد بدأ هذا النص بالضمير (نحن) كناية عن الله تعالى بعبارة ملؤها التعظيم والتخصيص ، (نحن) لا غيرنا بمشيئتنا لا بمشيئة مخلوق ، وقد تلا هذا الضميرَ الفعلُ المضارع (نقص) وهو مبدوء بحر ف المضارعة (النون) الذي يعد كناية عن الفاعل بصيغة الجمع إرادة للتعظيم أيضا. فهذا الضمير (نحن) قد قدم توكيدًا للعناية والاهتمام[3] **(3)** على الفعل (نقص) الذي يكتنف هذا الضمير أيضا. وقد جاء الفعلُ (نقصُّ) بالصاد المدغمة المشددة غير المفكَّكة ، وفي هذا إشارة إلى أن قصص الأنبياء **(c)** والأمم السابقة إنما هو من علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله تعالى ، فهي قصص مستورة مخفية لم يطلع عليها أحد – بعد الله تعالى – إلا من منَّ الله عز وجل عليه بوحي يكشف له ذلك. وهذا الغيب المستور ناسب إدغام (الصاد) في الفعل (نقص) فكما أنه غيب غير معلوم إلا بعد الإيحاء به كذلك هذه (الصاد) مدغمة غير مكشوفة ولا مفككة ، ويقابل هذا الرسم قوله تعالى على لسان يعقوب لابنه يوسف **(K)** : (يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ) [5] تنبيها ليوسف **(a)**على أن بوحَه برؤياه وكشفه إياها لإخوته سيعود عليه بالضرر. لذا نهاه عن الكشف والفك والبوح بقوله: (لاَ تَقْصُصْ) أي لا تجعل الأمر مكشوفا ظاهرا واضحا. وقد ناسب النهيَ عن هذا الكشف مجيءُ (الصاد) مكشوفة غير مدغمة ولا مستورة ، فهذه الخصوصية استدعت مجيءَ النص مؤكدًا بتقديم ما حقه التأخير وهو الضمير (نحن) على الفعل (نقص).وثمة موضع ثان وقع فيه تقديم ما حقه التأخير لتوكيد النص وهو قوله تعالى: (بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـذَا الْقُرْآنَ) ، فقد قُدم الجار والمجرور (إِلَيْكَ) على المفعول به (هَذَا) والبدل عنه (الْقُرْآنَ) دلالة على أن الرسول الكريم **(h)** قد شُرِّف بالوحي والرسالة ، وأنه منتهى غاية الإيحاء والتبليغ ، وأن ما يخبر به من قصص السابقين ليس من هواه ولا من ابتداعه (إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى ، عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى) [النجم: 4-5] وهذا موضع يستدعي التقديم لأهمية المقدَّم. وثمة موضع ثالث وقع فيه التقديم أيضا ، وهو قوله تعالى: (وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِين) إذ قُدم الجار والمجرور (مِن قَبْلِهِ) على خبر (كان) وهو (لَمِنَ الْغَافِلِين) دلالة على أن الأحداث والقصص والأحوال التي لم توحَ إلى الرسول الكريم **(h)** بعد إنما كان هو منها من الغافلين ، أي غير العالمين بتفاصيلها ودقائقها وأسرارها وحقائقها إلا بعد الوحي الإلهي بحسب ما نفهمه من هذا النص والله أعلم. وهذا موضع يستدعي الاهتمام والعناية فقُدم فيه ما كان حقه أن يتأخر.

إن كل جزء من أجزاء التركيب أو الجملة يُقدَّم على موضعه الطبيعي الاعتيادي يكون قد أُحيط بالعناية والاهتمام ، ويكون غاية في الذكر من بين أجزاء تلك الجملة ، يُلفت إليه النظرُ ، ويُمعنُ فيه الفكرُ ، وتفيض من ذكره وتقديمه المعاني الإيحائية التي يسرح بها الفكر وتتسع لها المخيلة.

3- كلامه تعالى عن النبي يوسف (a) ورؤياه :

قال تعالى: (إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِين) [4]. يمكن القول عن هذا النص الكريم: إنه محور سورة يوسف **(a)** ، بل هو محور معجزته وسيرته وطريق تأهيله إلى مسك زمام الأمور في مصر فيما بعد. فهذا نص الرؤيا التي جعلها الله تعالى حقا ، وكان تأويلها ما صار إليه يوسف **(a)** من سيادة وحكم وتصرف في شؤون الدولة. وهي رؤيا عظيمة الخطر والشأن والدلالة إذاما قيست بعمر

---

[3](3) ينظر في بيان دلالة التقديم على التوكيد: الكتاب1:27 و278. واللمع86. ودلائل الإعجاز ، الجرجاني84. والإيضاح في علوم البلاغة ، الخطيب القزويني1:52.

يوسف (a) وهو ابن (سبع سنين). ويروى بعمر أكبر[4] **(4)**. لذا استحق المقام أن يبدأ النص بـ(إنَّ) وهي أداة التوكيد التي تؤكد اتصاف اسمها بخبرها أو تؤكد تحقق خبرها. وقد ناسب عظمة الرؤيا وخطرها أن تؤكد بـ(إنَّ) ، فالتوكيد لما هو مهم وبارز. وقد ورد الفعل (رأيت) الأول في موضعه الطبيعي ثم تلاه المفعول وهو (أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ) ، أما الفعل (رأيت) الآخر فقد ورد مؤخرًا بعد هذا المفعول إشارة إلى عظمة الشيء المرئي ومهابة حاله وهي السجود. فهذه الكواكب الأحد عشر وهذان الجرمان الكبيران (الشمس والقمر) قد اتصفوا بما هو للعقلاء وهو السجود ، وهو أمر غير معهود في اليقظة. وكانت هذه الكواكب كناية عن إخوته الأحدَ عشرَ وأنهم سيخضعون له ويمتثلون لرأيه فيما يستقبل على الرغم من شدة بغضهم ليوسف (a) ، وما حاكوه له من دسائس ومكايد وحيل. وكان الشمس والقمر كناية عن أبويه مصدر رعايته وحمايته ، وكان سجودهم في هذه الرؤيا سجود شكر وطاعة لله تعالى على أنعمه وآلائه. فاستدعى المقام توكيد هذا النص بـ(إنَّ) تارة وبذكر الفعل (رأيت) مرتين تارة أخرى.

4- كلامه تعالى على لسان يعقوب توجيهًا لابنه يوسف (K) :

قال تعالى:(قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِين) [5].

أشرتُ فيما مر إلى علة فك إدغام (الصاد) في الفعل المنهي عنه (لاَ تَقْصُصْ) مقابل ادغامها في قوله تعالى (نَحْنُ نَقُصُّ) وأنها من ضروب الإعجاز الإلهي في القرآن الكريم، والله أعلم. وقد نبه النبي يعقوبُ ابنَه يوسف (K) على خطورة البوح برؤياه إلى إخوته لأنهم لن يتركوه إن علموا بشأنه في ضوء هذه الرؤيا. لذا جاء النهي مشفوعًا بالنصوص المؤكدة بتقديم ما حقه التأخير مرتين في قوله تعالى: (فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا) أي ((يحتالوا في إهلاكك لأنهم يعلمون تأويلها فيحسدونك))[5] **(5)** إذ قُدم الجار والمجرور (لَكَ) على المفعول المطلق (كَيْدًا) وهو مؤكِّدٌ أيضًا[6] **(6)** اهتمامًا بشأن يوسف (a) المكنى عنه بـ(كاف) المخاطب في الجار والمجرور (لَكَ) ، وفي قوله تعالى: (إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِين) بتقديم الجار والمجرور (لِلإِنسَانِ) على خبر (إِنَّ) وهو (عَدُوٌّ مُّبِين). وكل من هذين المتقدمين (لَكَ) و (لِلإِنسَانِ) مخصص بـ(لام) الملك إشارة إلى أن الجار والمجرور بهذه (اللام) إنما هو المعني بالأمر ، وهو المعتنى به ومدعاة الاهتمام ومعقد الكلام ، لذلك قُدم على تاليه. وثمة توكيد ثالث في قوله تعالى: (إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِين) بـ(إِنَّ) تنبيها على أن الشيطان لا يترك فرصة سانحة إلا وأراد فيها أن يطيح بمن اتقى واستقام ، لأنه عدو مكشوف واضح السوء للإنسان ، وإشارة ليوسف (a) بأن كيد إخوته له واحتيالهم عليه إنما هو فعل شيطاني يراد به القضاء عليه والانتهاء منه ، لذا يجب الحذر والتستر على أمر الرؤيا ، وللغنة التي تصدر من (نون إنَّ) شأنٌ في ترسيخ هذه المفاهيم المهمة في فكر يوسف (a) , والله أعلم.

5- كلامه تعالى على لسان يعقوب وهو يبشر ابنه يوسف (K) بما سيكون عليه:

قال تعالى: (وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيم) [6].

هذا النص الكريم من جملة الحوار الذي دار بين يعقوب وابنه يوسف (K) ، وقد ضم مجموعة من النعم الإلهية التي سيفيضها الله تعالى على يوسف (a) ، وأنه سيكرم بها وتتم له كما كرم الله تعالى بها أبويه إبراهيم واسحق (K) وأتمها عليهما من قبل. وقد ذكر له أن هذا الاجتباء وهذا التعليم لتعبير الرؤيا وهذا الإتمام للنعمة إنما حصل وسيحصل في ضوء علم الله تعالى وحكمته ، وأن البعد الزمني بين نعمة وأخرى وما سيحصل ليوسف (a) بين نعمة وأخرى إنما هو بعين الله تعالى وبعلمه وبموجب حكمته التي ترعى كل شيء. فتمكين يوسف (a) في ضوء هذا الاجتباء والاختيار والاصطفاء وتعليمه معجزة تفسير الأحلام وتعبير الرؤيا وتمام النعمة الإلهية وتتويجها بمَسك زمام الحكم وتدبير الأمور في مصر ، كما حصل من قبل لكل من إبراهيم واسحق (K). كل هذه الفيوض الإلهية تستدعي النظم الملائم لبيان الدلالة العظيمة لكل منها. لذا ورد في هذا النص ثلاثة تقديمات لبيان أهمية المقدَّم وهي: تقديم الجار والمجرور (كذلك) على الفعل (يَجْتَبِيكَ) دلالة على ربط النتيجة بالسبب ، وأن تمكين يوسف (a) إنما ينتج من اللطف الإلهي ثم من الامتثال لتوجيه يعقوب (a) إذ أشار عليه بكتمان أمر الرؤيا ، وأنها بؤرة ضوء سينير له طريق رسالته وتوضح له سبيل حياته لا يمكن كشفها لإخوته لأنهم لا يريدون له ذلك حسدًا. وتقديم المفعول به (كاف الخطاب) على الفاعل (رَبُّك) في قوله تعالى: (يَجْتَبِيكَ رَبُّك) دلالة على عظمة منزلة

---

[4](4) ينظر: زاد المسير في علم التفسير ، أبو الفرج عبدالرحمن بن علي القرشي البغدادي ابن الجوزي 180:4.

[5](5) لباب التأويل في معالم التنزيل، البغوي ، تح: خالد العك ومروان سوار1:213.

[6](6) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، محمد بن جرير الطبري149:7.

المجتَبَى وأنه محط العناية الإلهية واللطف الرباني وهذا ما لا يتحصل – هنا - إلا بتقديم ما حقه التأخير. وتقديم الجار والمجرور (مِن قَبْلُ) على البدل (إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ) في قوله تعالى: (كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ) دلالة على أنك من أسرة كريمة تنعمت بالرحمة الإلهية وتمام الفيض الرباني ، وأنه تناهى إلى علمك مدى السمو الذي بلغه كل من إبراهيم واسحق (K) ومدى ما نالاه من رضا الله تعالى حتى اجتباهما وفضلهما وكرمهما وشرفهما.وقد خُتم هذا النص الكريم بـ(إنَّ) في قوله تعالى: (إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيم) دلالة على أن كل ما ستمر به من محن وبأساء وشدائد إنما هو سبيل إلى ابتلائك واختبارك واجتبائك واصطفائك وتعليمك معجزة تعبير الرؤيا التي ستؤدي إلى تمام النعمة عليك كما أتمها على أسلافك (c) وأنه لم يقع إلا بعلم الله تعالى وعن حكمته التي اقتضت ذلك.

6- **كلامه تعالى عن أهمية قصة يوسف (a) وأثر بيانها للسائلين ولنا أيضا:**

قال تعالى: (لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخوته آيَاتٌ لِّلسَّائِلِين) [7].

بدأ هذا النص بـ(لقد) وهي أداة مركبة من (لام) جواب القسم المكتفى عن ذكره ، وهي تفيد التوكيد ، ومن (قد) وهي أداة تؤكد مضمون جملتها أيضا. فهذه الأداة إنما هي مؤكدان في كلمة واحدة[7]**7)**. وقد ذُكرت في مطلع هذا النص دلالة على أهمية العبر المستقاة من قصة يوسف (a) وما حل به من إخوته وسواهم ، وأن هذه العبر إنما هي سبيل للسائلين الذين تمنوا معرفة ما حل بيوسف (a) وما جرى بينه وبين إخوته ، وما آل إليه مصيرهم أجمعين. وثمة توكيد ثالث في هذا النص ، وهو تقديم خبر (كَانَ) وهو (فِي يُوسُفَ وَإِخوته) على اسمها المؤخر وهو (آيَاتٌ) دلالة على أهمية ما قُدم ، وأنه محط العناية ومعقد الكلام ، فـ(يُوسُف وَإِخوته) وما مروا به هو الغاية في الذكر ومحور العبارة ، وهذا ما لا يشي به إلا التقديم. والله أعلم.

7- **كلامه تعالى عن إخوة يوسف (a) ورؤيتهم إلى أبيهم حسب ظنهم بموقفه من أبنائه ، والنقاش الحاد الذي دار بينهم حتى اتفقوا على صورة الخلاص من يوسف (a) ، وما تحايلوا به على أبيهم من استصحاب أخيهم (a)** : قال تعالى: (إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِين ، اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ، قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لاَ تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ، قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ، أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ، قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُواْ بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ، قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُون) [8-14].

هذا حوار بين إخوة يوسف أنفسهم كشفوا فيه أولا عن مدعاة كيدهم لأخيهم يوسف (a) فقد وقر في أذهانهم أن أباهم يعقوب (a) يؤثر عليهم أجمعين كلا من يوسف (a) وأخيه (بنيامين) على الرغم من أنهما صبيان صغيران ، وهم عصبة قد أخذوا على عواتقهم القيام بشؤون أبيهم وشد أزره كما يشد بعضهم أزر بعض. فرؤيتهم أُحادية الجانب هذه استدعت أن يفتتح هذا النص بـ(لام) التوكيد التي غالبا ما تقع ((أول الجملة وصدرها))[8]**8)**. وهي إنما ((تدخل لتوكيد الكلام))[9]**9)**. وقد دخلت هذه الـ(لام) على المبتدأ وهو كلمة يوسف (a) المتصل بـ(أَخُوهُ) بوساطة العطف وكأنهما كلمة واحدة ، دلالة على أن يوسف وأخاه هما محط الذكر والحديث والرهبة بالنسبة لأبناء يعقوب الآخرين ، وأن أذهان هؤلاء الإخوة لا تنفك مشغولة بهما وبخطرهما ومكانتهما وإيثارهما ، حتى شكل هذا الظن والخوف من أمرهما دافعًا لاتهام هؤلاء الإخوة أباهم (a) بأنه (لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِين) ، وهم يريدون عدوله عن حبهم إلى حب يوسف وأخيه حتى غلب في ظنهم أن هذا ضلال وخروج عن الحق. لذا أكدوا هذه العبارةَ بمؤكدين هما (إنَّ) و (لام الابتداء) التي دخلت على خبر (إنَّ) وهو الجار والمجرور (لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِين) ، وهما مؤكدان يوحيان بأن ثمة مرارة وحرقة وكمدًا في نفوس هؤلاء الإخوة على ما تراءى لهم من هذا الإيثار. بعد ذلك انتقل النص إلى بيان النقاش الحاد الذي استفاض فيه الإخوة حول طريقة الخلاص من يوسف (a) ، فكان الرأي الأول مخيِّرًا بين قتله وهو خيار شديد وقاسٍ نابع من نظرة سوداوية إلى هذا الأخ الصغير ، أو نفيه في أرض مجهولة لا يهتدي إليها قريب إليهم ، وتركه إلى مصير إن لم يمت في قساوته تاه في فلواته ، ثم انتهى الأمر إلى الرأي الحاسم الذي طرحه أحد الإخوة وهو أقل خطرًا من سابقه ، بل هو يوحي بشيءٍ من الندم على ذكر

---

[7](7) ينظر: شرح جمل الزجاجي ، الزجاجي ، تح: د. صاحب أبو جناح1:520-521. وإعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم ابن خالويه100. والمقتصد2:865. وشرح الكافية ، ابن الحاجب2:339.

[8](8) الخصائص ، ابن جني ، تح: محمد علي النجار ورفيقيه1:314.

[9](9) اللامات ، الهروي76. وينظر:الإنصاف في مسائل الخلاف ، أبو البركات الأنباري ، تح: محمد محيي الدين1:399 [مسألة 58]. وشرح المفصل ، ابن يعيش9:25. ومدرسة الكوفة ، د. مهدي المخزومي307.

الرأي الأول الذي أشار بالقتل ، فهذا الرأي الحاسم يشي بضرب من الشفقة على يوسف (a) ودرء القتل عنه ، وقد ورد هذا الرأي في عبارة مؤكدة بتقديم ما حقه التأخير في قوله تعالى: (قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لاَ تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ) إذ قُدم جواب الشرط (لاَ تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ) على أداة الشرط وجملته (إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ) بسبب أهمية هذا الجواب ، ولأنه رأيٌ بديل تم الاتفاق عليه فيما بعد وقد وقع فعلا ، لذا قُدم ما هو مهم معتنًى بذكره وما كان محط النظر ومعقد الكلام. وليس بصحيح رأي من ذهب إلى تقدير جواب شرط يقال عنه: (إنه محذوف) يفسره المذكور المقدَّم على الأداة وجملة الشرط ، بل هذا المذكور مقدَّما هو نفسه جواب الشرط[10] وهو في مثل هذه المواضع يقدم للعناية والاهتمام[11]. ثم انتقلت الأحداث إلى مفاتحة الإخوة أباهم حول اصطحاب يوسف (a) بقولهم: (يَا أَبَانَا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ، أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) الذي يتجلى منه مدى الإلحاح الذي كان يتجدد بقصدٍ من الأبناء على أبيهم يعقوب (a) وقوة الإصرار على كسب ثقة أبيهم ليرسل معهم يوسف (a) ، فاستفهموا من أبيهم بقولهم (مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ) الذي يوحي بتعجبهم من عدم ائتمانهم على يوسف (a) متناسين أنه يعلم بمدى تحسسهم من أخيهم وحسدهم وكيدهم له. ولأنهم يعلمون بموقف أبيهم منهم تجاه طلبهم هذا عمدوا إلى إظهار حرصهم الكبير على يوسف (a) وادعوا أنهم لا يريدون به فسادًا ولا سوءً ، بل هم إلى نصحه أقرب منه إلى الإضرار به ، فطرحوا طلبهم لاصطحابه معهم بعبارة مشحونة بالتوكيد ، إذ أكدوها بثلاثة مؤكدات هي (إنَّ) ، وتقديم الجار والمجرور (لَهُ) على الخبر (نَاصِحُونَ) ، و (لام التوكيد) الداخلة على هذا الخبر في قوله تعالى: (وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ) ، وقد سيقت هذه العبارة مؤطرة بهذه المؤكدات لسببين رئيسين هما:

عدم ثقة أبيهم بهم مما يستدعي تحسين صورتهم أمامه وكسب تلك الثقة المرجوة لتحقيق المبتغى.

علمهم بكذبهم وأنهم بعيدون عن النصح له مما دفعهم إلى تغطية كذبهم بشحن هذه العبارة بالمؤكدات.

وبعد هذه الوعود والعهود التي قطعوها لأبيهم على أنفسهم فيما يتعلق برعايتهم يوسف (a) إن وافقهم على اصطحابه ، طرحوا في خلاصة حوارهم طلبَ إرسال يوسف (a) معهم للترويح عن نفسه بما يناسب عمره كما يرون هم. وقد استعملوا لطلبهم هذا الفعل (أرسل) الذي يوحي بالائتمان والحفظ وصون الأمانة ، فكل رسول يكون أمينا على ما أرسل به ومبلغا لما كلف من أجله ، ولذلك ختموا عبارتهم بما أخبر به الله تعالى عنهم (وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) وهي عبارة مؤطرة بثلاثة مؤكدات أيضا هي (إنَّ) ، وتقديم الجار والمجرور (لَهُ) على الخبر (حَافِظُونَ) ، و (اللام) الداخلة على الخبر (لَحَافِظُونَ) ، فقد أرادوا بعبارتهم هذه شحن موقفهم بكل ما أوتوا مما يبين الثقة والصلاح والمحبة ليوسف (a) ، وأنهم كالرسول الذي يحفظ أمانته ويصونها حتى يوافي بها من تعهد له بصونها. وهذه العبارة كسابقتها إنما زخرت بالمؤكدات لكسب ثقة أبيهم ولعلمهم بكذبهم ، إذ إن الكاذب لا ينفك مؤكدًا كلامه لعدم ثقته بنفسه. بعد ذلك رد عليهم يعقوب (a) بما يراوده من أفكار تحزنه وتخيفه فقال لهم: (إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُواْ بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ) ، وهو رد يستدعي التدبر ويستوجب التأمل فيه. فقد افتتح ردَّه ببيان حاله إن ذهبوا بيوسف (a) إلى حيث أخبروه من مكان الرتْع واللعب والترويح عن النفس بقوله: (إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُواْ بِهِ) مؤكدًا عبارته هذه بمؤكدين هما (إنَّ) و (اللام) لأنَّ أشد ألم سيصيبه إنما هو ألم فراق يوسف (a) وابتعاده عنه ، إذ إنه لايزال صبيا صغيرًا يحتاج إلى رعاية أبيه وولاية أمره ومتابعة أحواله وحماية أمر نبوته لعلم يعقوب (a) بوساطة الإيحاء السماوي وبطريق رؤيا يوسف (a) بأنَّه سيصبح نبيا وذا شأن. لذا زخرت عبارته بما يظهر لاعج هواه وأشجانه على فراق عزيز تُحاك له الحيل وتدبر له الدسائس. أما عبارته التي بيَّن بها خوفه من مصير يوسف (a) إن ذهبوا به وهي (وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ) فلم يرد فيها أي مؤكد لا بسيط ولا قوي ، وهذا ما قلت عنه إنه يستدعي التدبر ويستوجب التأمل ، إذ يتجلى من عبارتي يعقوب (a) أنه أكد ما هو أقل شأنا – ولو على الظاهر - وهو ذهاب يوسف (a) وابتعاده عنه وقتا قصيرًا – كما تعهد الإخوة – بقوله في ضوء البيان االقرآني: (إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُواْ بِهِ) ، ولم يؤكد ما هو أخطر شأنا وأبلغ أثرًا ، أي الخوف عليه من أكل الذئب إياه بقوله: (وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ) لعلمه بأن الله تعالى سيحفظه من أي خطر يحدق به ، وأنه لن يؤكلَ بدليل قول يعقوب ليوسف (K) بعد إخباره إياه برؤياه: (قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِين ، وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيم) [5-6] ، فإنه (a) سيُجتبى بأمر الله تعالى وحفظه

---

[10](10) ينظر: مغني اللبيب ، ابن هشام ، تح: محمد محيي الدين عبدالحميد2:721.

[11](11) مغني اللبيب2:721.

واصطفائه ، وأن الله عز وجل سيُنعم عليه بمعجزة تعبير الرؤيا وهذه ستكون مؤهلاتٍ ووسائل ليبلغ بها يوسف (a) تمام النعمة الإلهية التي سيمسك بها زمام الأمور الدينية والدنيوية في مصر وما يحيط بها ، وهذا سيحصل بأمر الله ومشيئته وتوفيقه ، لذا لا يوجد مسوغ للخوف من فكرة أكل الذئب إياه ، لأنها لن تحصل أبدًا. فكان هذا مدعاةً لعدم مجيء الفعل (أخاف) مؤكدًا بما يوحي بشدة الخوف من أكل الذئب ، لأنه لا يُؤتَى بالتوكيد على شيء ليس بذي بال. نعم وردت عبارة (يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ) وقد قُدِّم فيها الضمير (الهاء) - وهو كناية عن المفعول به وهو يوسف (a) – على الفاعل (الذِّئْبُ) ، وهو تقديم واجب لأن هذا الضمير لا يمكن تأخيره بعد الفاعل ، وقد قدِّم لأنه المخصوص بالحديث عليه فهو معقد الكلام.

وبعد هذا التوضيح المستفيض من يعقوب (a) جاء رد أبنائه عليه بما يحاولون به بث الثقة في نفسه تجاه طلبهم هذا فأظهروا له إجماعهم المتماسك المتعاهَد عليه لحفظ أخيهم بعبارة تشي باستحالة وقوع ما يخشاه على يوسف (a) فقالوا له في ضوء البيان االقرآني: (لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُون) ، وقد زخر ردهم هذا بالمؤكدات التي قووا بها كلامهم السابق ووعودهم الموثقة لحفظ أخيهم وعنايتهم به ، وهي (لام) القسم المكتفى عنه ، وتقديم المفعول به وجوبًا وهو (الهاء) على الفاعل (الذِّئْبُ) ، و(إِنَّ) ، و(إِذًا) التي تفيد التوقف والتأمل والمفاجأة والتعجب ، و(اللام) الداخلة على الخبر (لَخَاسِرُون) بما يصور لنا مدى حماسهم وشدة اندفاعهم وهم يحاورون أباهم وكأن أحدهم يدفع الآخر ويسكته ليطرح الكلام نفسه ، لأنهم أرادوا أن يثبتوا أنهم لن يسمحوا لأنفسهم أن يفرطوا بيوسف (a) كما ظن أبوهم لأنه لو وقع هذا لأطاح بصرح قوتهم وبناء صدقهم وعزم مواثيقهم. وقد شبهوا هذا المحذور منه – لو وقع – بأنه خسران ليس بعده نجاح ولا ربح ولا ظفر. فكيف بإخوة يتعصب بعضهم للبعض الآخر - وهم متكاتفون متآزرون متفانون من أجل قضيتهم أشداء أقوياء ناصحون حافظون لما استنصحوه واستحفظوه - أن يقع مقابل خصالهم هذه فقدان أخيهم المرسل معهم بافتراسه من قبل ذئب يهاجمه ؟! إنه برأيهم شيءٌ لن يحصل أبدًا لأنه لم يقع معهم فيما سلف لشأنهم المذكور وخصالهم المانعة من ذلك. وكلامهم في هذا الجواب مؤكد**[12]** لأنه تابع لمفتتح عبارتهم في ضوء البيان القرآني: (لَئِنْ).

8- **كلامه تعالى عن تنفيذ الإخوة كيدَهم ليوسف (a) ، وذكر فضله تعالى عليه بما يشعره بنجاته:**

قال تعالى: (فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ وَأَجْمَعُواْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُون) [15]. بعدما ذُكر الحوار الذي دار بين الإخوة أنفسهم من جهة ، وبينهم وبين أخيهم من جهة أخرى وانتهائه إلى طرح الإخوة مواثيق لأبيهم (a) تمكنهم من اصطحاب يوسف (a) معهم ، ثم دفع به أبوه يعقوب (a) إليهم وملؤه الحزن لفراقه لا لشيءٍ آخر ، بيَّن لنا الله تعالى إجماعهم على جعله في غيابة الجب لنفيه عن مرابع أبيه وديار بأية طريقة ، وذكر أنه تعالى قد حبا يوسف (a) بالحفظ واللطف والرحمة في كل ما يمر وسيمر به بقوله تعالى: (وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُون) ، أي أنك يا يوسف ستنجو وسيأتيك أخوتك يوما ما وستنبئهم بفعلهم هذا وتعاملهم معك وهم لا يشعرون بأنك أنت يوسف ، كما أخبرتنا السورة نفسها في قوله تعالى: (قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ، قَالُواْ أَإِنَّكَ لأنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَـذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِين) [89-90] ، ولبعث الطمأنينة في نفس يوسف (a) ، وأنه سينجو من هذا الخطر الذي يحدق به. ولترسيخ صلته بربه بما لا يستدعي أدنى خوف أو خشية من هذه المكيدة أخبره الله تعالى برحمته ولطفه به بعبارة مؤكدة بمؤكدين هما (اللام) و (نون التوكيد) ، قال سيبويه: ((وسألته [يعني الخليل] عن قوله: (لَتَفعَلَنَّ) إذا جاءت مبتدأة ليس قبلها ما يحلف به ؟ فقال: إنما جاءت على نية اليمين ، وإن لم يتكلم بالمحلوف به))**[13]**. والحقيقة أن التوكيد بالنون الثقيلة مع الفعل إنما يؤتى به في المواضع والعبارات المهمة جدا. قال الدكتور عبدالصبور شاهين: ((أسلوب توكيد الفعل بالنون المشددة هو نمط خاص بالعربية لم تعرفه أية لغة من اللغات السامية الموجودة ، وإن عرف بعضها أنماطا أخرى))**[14]**.

---

[12](12) ينظر في أن جواب القسم مؤكد بالقسم نفسه: الكتاب 144:2. واللمع287. والمقتصد2:862-863. وشرح المفصل58:7. وتسهيل الفوائد ، ابن مالك ، تح: محمد كامل بركات152. والمطالع السعيدة ، السيوطي، تح: د.نبهان ياسين82:2. والأساليب الإنشائية ، عبدالسلام هارون150.

[13](13) الكتاب455:1. وينظر: إعراب القرآن المنسوب إلى الزجاج ، تح: ابراهيم الأبياري 611:2. ونسبتُه إلى الزجاج ليست بصحيحة. فهو لجامع العلوم علي بن الحسين (ت 543هـ). والأصول في النحو199:2.

[14](14) المنهج الصوتي للبنية العربية96. وينظر في لزوم اللام والنون الفعلَ المضارع المثبت وهو جواب قسم: الكتاب454:1. وجواهر الأدب ، علاء الدين الأربلي، قدم له: السيد محمد مهدي الموسوي77و174. وشرح عمدة الحافظ ، ابن مالك ، تح: أحمد عبدالمنعم هريدي220.

إن اللطف الإلهـي بيوسف (a) نقله مـن شدة الخوف من المصير المجهول - بعد إلقائه في غيابة الجب - إلى راحة الاطمئنان بالحفظ الإلهي ، وذِكْرِ طرفٍ من المستقبل المشرق الواعد بالفيض الرباني. وهذا ما جسدته عبارة (لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُون) المؤكدة.

9- كلامه تعالى عن الإخوة وهم يخبرون أباهم (a) عن أكل الذئب يوسفَ (a) وفرية القميص ، وموقف يعقوب (a) من ذلك:

قال تعالى: (وَجَاؤُواْ أَبَاهُمْ عِشَاء يَبْكُون ، قَالُواْ يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ، وَجَآؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُون) [16-18]. وهنا نفَّذ الإخوة مَا أرادوا من تحايلهم على أبيهم - بعدما طلبوا منه إرسال يوسف (a) معهم وتعهدوا له بحفظه – فجاؤا بخبر غير سار واختاروا لمواجهة أبيهم به وقت العشاء لأن الضوء فيه قد أفل ولم يعد بمقدور يعقوب (a) أن يلحظ كذبهم في ضوء تعابير وجوههم وتلونها واضطراب ملامحهم وهو أمر لم ينطلِ عليه البتة. وقد دلَّ النص القرآني على كذبهم من هذا المقطع إذ قال تعالى: (يَبْكُون) بصيغة الفعل المضارع إشارةً إلى تصنع البكاء وتجدده وافتعاله وكذب الحال ، وليس (باكين) بصيغة اسم الفاعل التي يراد منها الدوام والثبات وصدق الحال. ولأنهم خائفون من طرحه على مسامع أبيهم لعلمهم بعدم تصديقه إياهم من جهة ولعلمهم بأنهم كاذبون من جهة أخرى بدأوا عبارتهم بـ(إنَّ) لتوكيد كلامهم ودفع أبيهم إلى تصديقهم وقبول ادعائهم فقالوا في ضوء البيان القرآني: (إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ) ، مع ما تضفيه غنة (النون) وهي ثلاث (نونات) عند التحليل ، يليها صوت المد من (الألف) الذي يضفي طابع الاستكانة والتضرع عليهم. ولعلمهم بكذبهم وثقتهم بأن أباهم لن يصدقهم ختموا عبارتهم هذه بقولهم في ضوء النص القرآني : (وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ) مستعملين (ما) النافية ، ومؤكدين نفيها بتعزيزها بـ(الباء) المقوية لهذا النفي. وهذا أمر لا يمكن أن يصدر من شخص إلا إذا كان كذبه جليا ولا معدى للسامع عن إنكاره. وقد بان كذبهم بشكل أكثر جلاءً عندما جاؤا بدليلهم المادي لإثبات ادعائهم وهو ما ذكره الله تعالى عنهم بقوله: (وَجَآؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ) كي يضفوا طابع الحزن الشديد لأمر يرون أنه لا مناص من تصديقه وهو أن يوسف (a) قد قضى مأكولاً. وهذا الدليل هو قميص يوسف (a) ، وقد بدأت عبارة هذا الحدث بالفعل (جاء) وهو غالبا ما يستعمل في المواقف الخطرة والشديدة والمهمة وفي الأحوال التي تستدعي جهدًا وقوة وعزما وحزما ، بعكس الفعل (أتى) الذي غالبا ما يرد في المواقف السهلة والهينة[15] **(15)** ، وفي الأحوال التي تستدعي تأنيا وروية ولطفا. فموقفهم هذا خطر جدا ويستدعي بذل جُهدٍ استثنائي لإقناع أبيهم (a) وتمرير أكذوبتهم. وقد تلا هذا الفعلَ الجارُّ والمجرور (عَلَى قَمِيصِهِ) وحقه التأخير إلا أنه قُدِّم على ما جيء به وهو عبارة (بدَمٍ كَذِبٍ) للعناية والاهتمام به. فعبارة (عَلَى قَمِيصِهِ) تفصح عن صب الدم من الأعلى أو من الخارج على القميص بطريقة مفتعلة مفضوحة تشي بأن الدم لم يتدفق من جسم يوسف (a) ليلتصق بالقميص من داخله على شكل تجلطات وتجمع بقع كثيفة. فالحرف (على) يدل على كذبهم ويفضح افتعالهم هذا الأمر. ولذلك جاءت عبارة (عَلَى قَمِيصِهِ) مقدمة على عبارة (بدَمٍ كَذِبٍ) لكشف الفرية قبل وصف الدم بما فيه مبالغة في الوصف وهو المصدر (كَذِب). ولأن يعقوب (a) لم يكن لديه أدنى مسوغ لتصديق شيء مما جاؤا به - لأنه هو من أخبرهم فيما مضى عن سبب خوفه من اصطحابهم يوسف (a) بقوله في ضوء البيان القرآني: (وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ) الذي اتخذوه حجة لادعائهم ما حل بيوسف (a) – رد عليهم بما قاله الله تعالى حكاية عنه: (بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُون) معرضًا عن كلامهم لأن ادعاءهم موشح ومبطن بأمارات الكذب والافتراء. وقد وقع التوكيد في هذا الرد في عبارة (سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا) إذ قُدِّم الجار والمجرور (لَكُمْ) على الفاعل (أَنفُسُكُمْ) إشارة إلى تزيين أنفسهم وتسهيلها لهم دون غيرهم ، فهم أصحاب هذه الأفكار , وإليهم منتهى نتائجها ، ولهم تهوين الأمور وتيسيرها. ولعلي لا أعدم الدليل إن قلت: إن كذبة إخوة يوسف هذه جاءت موشحة وزاخرة بوهنها وضعفها وسرعة ردها ، وقد بان هذا الوهن من اتخاذهم فكرة أبيهم ذريعة لادعائهم ، ومن مواجهة أبيهم ليلا وادعائهم البكاء ، ومن جعلهم قميص أخيهم وهو غير ممزق دليلا لدعواهم ،

---

[15](15) ينظر: المفردات في غريب القرآن ، الراغب الأصفهاني 8. ولمسات بيانية في نصوص من التنزيل ، د. فاضل صالح السامرائي97-98. ودقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني ، محمد ياس خضر الدوري 229-233 (أطروحة دكتوراه مخطوطة) / جامعة بغداد / كلية التربية (ابن رشد).

ووضع الدم عليه وصبه صبا مفتعلا ، وهو كذب. ((قال الثوري عن ... ابن عباس ... قال : لو أكله السبع لخرق القميص وكذا قال الشعبي والحسن وقتادة وغير واحد))[16] **(16)**.

10- كلامه تعالى عن السيارة التي مرت قريبا من الجب وما حدث ليوسف (a) :

قال تعالى: (وَجَاءتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَـذَا غُلاَمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ، وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِين) [19-20].هذا منعطف جديد في تسلسل أحداث القصة يتمثل بانتقال يوسف **(a)** من غيابة الجب بعد التقاطه من قبل وارد السيارة التي مرت بالقرب من موضع إلقائه. وهو منعطفُ بيعه بثمن بخس قليل يمكن عده وحسابه بيسر وسهولة وسرعة. ولأن من باعوه لم يشترطوا لبيعه ثمنا باهضا جدا - فهم يريدون الخلاص منه بأسرع ما يمكن كي ينتقل بوساطة من يشتريه إلى أبعد مكان حيث لا يصل إلى مضارب أهله أو أبيه شيء من أخباره – فقد جاءت عبارة وصفهم (وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِين) لتكشف حالهم وهم يبيعونه دونما مماطلة وشرط. وقد قدِّم فيها الجار والمجرور (فِيهِ) على الخبر (مِنَ الزَّاهِدِين) لأهمية هذا المقدَّم ولأنه محور الأمر ، ولبيان أنهم قد زهدوا فيه هو نفسه زهدًا يفصح عن كرههم إياه ونبذهم له ، وكأنه أقل شأنا بكثير من العبد أو الأمة اللذين يباعان في سوق النخاسين بمبلغ يماطل من أجله ولا يبخس حقه ولا يزهد فيه ، لأنهما سلعتان للتجارة والربح ولبيان أن هؤلاء البائعين نظروا إلى يوسف **(a)** على أنه ليس سلعة أو بضاعة قد اشتروها ويريدون الإفادة والربح من بيعها بأكثر مما اشتروه به، بل هو – كما يرون – ضرر عليهم يجب التخلص منه كيفما كان.

11- كلامه تعالى أخذ عزيز مصر (قوطيفار) يوسف (a) إلى بيته بعد شرائه ، وما وصى به زوجتَه من حسن معاملةٍ لغاية مرجوة ، وبيان التدبير الإلهي ليوسف (a) ، وما وقع له وهو في دار العزيز من زوجته (زليخا) ، واطِّلاع العزيز عن كثب على ما حل به من نكبة في العرض بسبب طيش زوجته:

قال تعالى: (وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ، وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ، وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ، وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ، وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ، قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ ، وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِن الصَّادِقِينَ ، فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ، يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِين) [21-29].

بعدما مر بيوسف **(a)** من أحداث أوصلته إلى دار العزيز ، طلب العزيز من زوجته أن تحسن إليه ليصل - بطريق الانتفاع منه وما سيكون عليه من كفاءة وانضباط يُختَبَر في ضوئهما – إلى أن يكون ولدًا للعزيز إذ إنه عقيم كما روي[17] **(17)** ، وقد بيَّن الله تعالى أن هذه المراحل التي مر وسيمر بها يوسف **(a)** إنما هي بعينه تعالى وبتدبيره وعن أمره ومشيئته.وبعد ما قضى يوسف **(a)** سنين في بيت العزيز ، وبلغ أشده أفاض الله تعالى عليه بكراماته وإلهامه ، وقد أدى به هذا الكرم الإلهي إلى أن يكون القمة في النبل والعفة وصون العرض ، وهو أمر لم يرق لزوجة العزيز التي أضحى في قلبها وقع كبير ليوسف **(a)** غلب عليها حتى هامت به لوسامته ولما أنعم به الله تعالى عليه من خصال لم تتفق لسواه. فدعته إلى نفسها بالمراودة والحيلة والتزيين لتثنيه عن عزيمته وليِّه عن ثباته على يقينه وإيمانه وعفته ، فخلعت ما عليها وهي تظن أنها ستصعقه لما هي عليه من حسن وجمال وقدٍّ ، وأحكمت تغليق الأبواب بشدة وقوة تفصح عما في نفسها من هيام وإرادة لحجز يوسف **(a)** ، وتوددت له بلسان رطيب مشوق وبحال قد هدأت بعد الثوران وطابت بعد الهيجان فقالت له في ضوء البيان القرآني: (هَيْتَ لَكَ). عندها جاء

---

[16] (16) تفسير القرآن العظيم ، اسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي أبو الفداء 619:2. وينظر: الجامع لأحكام القرآن ، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ، تح: أحمد عبد العليم البيروني 129:9. وأنوار التنزيل وأسرار التأويل278:1. ومدارك التنزيل وحقائق التأويل181:2. وإرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ، محمد بن محمد العمادي أبو السعود 260:4. وفتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ، محمد بن علي بن محمد الشوكاني16:3. وبحار الأنوار العلامة المجلسي225:12.

[17] (17) ينظر: جامع البيان228:12. وتفسير القمي ، علي بن إبراهيم القمي342:1. والتبيان في تفسير القرآن ، الشيخ الطوسي115:6. ومجمع البيان ، الطبرسي380:5. وزاد المسير152:4. والتفسير الصافي ، الفيض الكاشاني12:3. وتفسير الميزان ، السيد الطباطبائي108:11.

الرد الحاسم من يوسف (a) فقال لها: (مَعَاذَ اللّهِ) فهو حصني وحرزي ، وهذا ما لم تكن تتمناه. ثم شحن عبارته بالمؤكدات التي تزيل أدنى أمل عندها لإجابته مطلبها بوساطة (إنَّ) في قوله تعالى: (إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ) دلالة على بيان فضل من حباه برعايته وحمايته وكفالته ، وأنه لا يمكن أن يُجازى بهذا الفعل الدنيء ، وفي قوله تعالى: (إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) لبيان إيمانه الثابت الذي لا يغيره شيءٌ بأن الزنى ظلم لا فوز معه ولا فلاح فيه. وبعد أن يئست من إجابته مطلبها ، ورأت مدى إعراضه عنها همت به بكل ما أُوتيت من عزيمة ، أي أرادت مواقعته بطريقتها التي وضح معالمَها النصُّ القرآنيُّ ، ولأنها كانت على يقين لا حد له بأن لا معدى لها عن إمضاء ما تريد وتبتغي من يوسف (a) جاءت هذه الجملة (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ) مؤكدة بـ(قد) المقترنة بـ(اللام) ، فهي مشحونة بمؤكدين لبيان شدة اندفاعها ومدى ولهها وهيجان غريزتها. أما هو (a) فقد (همَّ بِهَا) أي همَّ أن يقتلها أو يضربها ليدفعها عن نفسه **(18)**[18] بكل وسائل الردع والدفع والمنع حتى لو آذاها ذلك ليبعدها عن نفسه ويوقف جماح غريزتها بأن يشج وجهها أو يضرب رأسها ليوقعها أرضا ويمنعها من مواصلة دناءتها. وقيل: همَّ بالفرار **(19)**[19]. والفعل (همَّ) - كما أجده لما سأذكر من دليل **(20)**[20] – ليس معطوفًا على الفعل (همَّت) ، و (الواو) حرف استئنافي لأن جملة (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ) مستقلة عن الجملة الشرطية التي تليها وهي (وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ). ونحن نستقي من قوله تعالى: (لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) أن المعنى: لولا أنه رأى مصيره الذي سيكون عليه لو قتلها أو ضربها ، إذ إنه سيتهم عندها بأنه هو من راودها وأراد مواقعتها فرفضت ففعل بها هذا الجرم. أي: لقتلها أو لضربها وآذاها ودفعها عن نفسه لولا أنه رأى مصيره الذي سيكون عليه وعاقبة إلحاق الأذى بزوجة العزيز. وهذه العبارة مؤلفة من أداة الشرط (لَوْلا) والشرط المعلق على وجوده (رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) ، وهي مؤخرة بعد جواب الشرط المقدَّم (همَّ بِهَا) للعناية والاهتمام وعقد الكلام. ولعل الدليل الجلي الذي يميز بين (همِّ) زليخا وأنه غريزي هجومي بدافع الشهوة و(همِّ) يوسف (a) وأنه أخلاقي متعفف دفاعي هو أن جواب الشرط المقدَّم (همَّ بِهَا) مرتبط دلاليًّا بعبارة (لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) أي: (همَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) وهو حديث عن حال يوسف (a) فقط ، أما جملة (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ) فهي مستقلة تدل على هيجان عواطف (زليخا) وشدة غريزتها تجاه يوسف (a) ، وهي غير متصلة لفظيًّا بما بعدها فلا معنى لأن يقال: (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) لو أُسقطت الجملة المعطوفة بعدها بوساطة حرف (الواو) وما بعدها إن قبلنا قول من ذهب إلى أن (الواو) حرف عطف. فعندها يكون الجواب المقدَّم يخص (زليخا) والشرط المؤخر يخص يوسف (a) وهذا تناقض جلي. إذًا (الهمُّ) متباين عند الطرفين ، والله أعلم إنَّ كل التأويلات والتحليلات النحوية والدلالية **(21)**[21] لجملة (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) لا تصب في جانب تنزيه النبي يوسف (a) وهو معصوم بأمر الله تعالى.

وقد خُتم هذا النص الكريم بقوله تعالى: (كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ) المؤلف من جملتين الأولى هي قوله تعالى: (كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء) المؤكدة بتقديم الجار والمجرور (عَنْهُ) - الذي يتضمن الضمير (الهاء) العائد إلى يوسف (a) - على المفعول به (السُّوءَ وَالْفَحْشَاء) لصرف الذهن إلى مدى العناية والحماية الإلهية بيوسف (a) وأنه بعين الله تعالى ، والأخرى هي قوله تعالى: (إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ) المؤكدة بـ(إنَّ) التي يترسخ بها توكيد فكرة ما تدخل عليه ، دلالة على استحقاق يوسف (a) لهذا الحفظ الإلهي بصرف السوء الذي قد يلحقه إن ضرب زوجة العزيز ودفعها بشدة عن نفسه ، وبصرف الفحشاء التي تتمنى صدورها منه (a) . ثم يأتي قوله تعالى: (وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوَءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) ، ومنه نجد أن يوسف (a) بعد أن أيقن أن (زليخا) لا تنثني عن عزمها الذي تريد قرر الجري نحو الباب ليخرج من مكان الحدث وهي تجري خلفه للحاق به ، فلما قربت منه

---

[18](18) ينظر: تأويل مختلف الحديث ، عبدالله بن مسلم بن قتيبة ، تح: محمد زهري النجار65 . وكتابا الشيخ الصدوق (عيون أخبار الرضا) 170:2 والأمالي151. وأمالي المرتضى (غرر الفوائد ودر القلائد) ، الشريف المرتضى ، تح: محمد أبو الفضل ابراهيم125:2. والبرهان في علوم القرآن ، محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي ، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم 346:1 و 150:3. وبحار الأنوار72:11 و335:12.

[19](19) ينظر: تأويل مختلف الحديث 67:1.

[20](20) وينظر: معاني القرآن الكريم ، أبو جعفر النحاس ، تح: محمد علي الصابوني413:3. والفصل في الملل والأهواء والنحل علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري 10:4. والبرهان في علوم القرآن346:1.

[21](21) ينظر: تفسير سفيان الثوري ، سفيان ابن سعيد بن مسروق الثوري140. وأحكام القرآن ، أحمد بن علي الرازي الجصاص تح: محمد الصادق قمحاوي384:4. والوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، علي بن أحمد الواحدي أبو الحسن 543:1. ومعالم التنزيل228:1. والكشاف ، الزمخشري578:1. والجامع لأحكام القرآن 142:9. والصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ، ابن قيم الجوزية محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي ، تح: د. علي بن محمد الدخيل الله716:2. وتفسير الجلالين جلال الدين محمد بن أحمد المحلي وجلال الدين السيوطي306. وفتح القدير3: 26-28.

أمسكت بأعلى قميصه فقدَّته من أعلى إلى أسفل وهو ما يدل عليه الفعل (قدَّ) الذي يراد به الشق طولاً بسبب اندفاع يوسف (a) نحو الأمام بكل سرعته. وهذا يعطينا صورة جلية عن عدم تفكير يوسف (a) في أن يتجه يمينا أو شمالا وهو يجري لأن ذلك يعني بقاءه يجري في مكان الحدث نفسه بطريق الانعطاف والعودة إلى الوراء ، وصورة أخرى عن أن حجم الغرفة التي كانا فيها كبير جدا يتسع للجري والاستباق نحو مقصود بعينه، وأن لها عدة أبواب منها الباب الرئيس الذي استبقاه.

ولسوء فعل زوجة العزيز وتفاجئها - بعد سحب يوسف (a) الباب لفتحه والخروج من المكان – بوجود زوجها على الباب ليدخل بادرت هي بإصدار الحكم الذي وجهت عقوبته إلى يوسف (a) دونما شرح للتفاصيل التي سبقت اصطدامهما بالعزيز ، وقد استعملت ألفاظًا تجرح ضمير زوجها بقصد ألا تبقي لديه أدنى فكرة في الرأفة والاستماع للدفاع عن النفس بقولها: (مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوَءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) مخيرةً زوجها بأن يأمر بسجن يوسف (a) أو أن ينزل به عذابًا أليمًا لتنتقم منه لعدم تلبية مطلبها ، مؤطرة عبارتها هذه بمؤكدَين هما: الحصر والقصر بـ(ما) و (إلا) فبهما قصر المبتدأ (جَزَاء) على الخبر (أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) وحصر فيه ، والمراد من ذلك ألاَّ حكمَ إلا بأحد هذين العقابين. فالقصر ((طريقة من طرائق التوكيد يهدف بها المتكلم إلى تثبيت غرضه في ذهن السامع وإزالة ما في نفسه من شك فيه. والتوكيد بالقصر أقوى طرائق التوكيد وأدلها على تثبيت ما يراد تثبيته أو تقريره))[22](22).

تقديم ما حقه التأخير في الجملة الفعلية الواقعة صلة لـ(من) في قوله تعالى: (مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوَءًا) وهو الجار والمجرور (بِأَهْلِكَ) على المفعول به (سُوَءًا) ، دلالة على هزِّ مشاعر العزيز وجعله يشتاط غضبًمن يوسف (a) ، إذ لا شيء يمكن أن يستفز الزوج ويهيج غضبه وثورته كسماعه بالنيل من عرضه وشرفه في أهله وزوجته ، وهذا مما يوحي به هذا التقديم والتوكيد والله أعلم وهنا تسنح الفرصة ليوسف (a) ليرد التهمة عن نفسه بعبارة الواثق الذي يريد إزالة إنكار رده هذا من فكر المخاطب بقوله في ضوء النص القرآني: (هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي) ، فقدَّم الضمير (هي) العائد إلى (زليخا) ليجعلها محور الحديث ومعقد الكلام ومحط الفكرة ، إذ قَدَّم هذا الضمير ثم جاء بالحدث الذي اتهمته هي به وهو الفعل (راودت) ، ليوجه التهمة إلى فاعلها وهذا ما لا يتحصل إلا بهذا التقديم المؤكد الذي زاد في تحقيقه وإثباته ذلك الشاهد الذي قيضه الله تعالى ليوسف (a) إذ (شَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ ، وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِن الصَّادِقِينَ) ، والحقيقة أن هذا ما لم يَرْتَبْ فيه العزيز لأنه سبق أن طلب من زوجته أن تكرم مثواه عسى أن ينفعهما أو يتخذاه ولدا. وهذا الرجاء لا يكون لصبي سيِّء الخلق عديم العفة والشرف. فالعزيز نفسه قد رأى على يوسف (a) سيماء النجابة والعفة وطيب الخلق ، وهذا ما دفعه إلى شرائه أصلا. ولذلك لم يصغ إلى ما حكمت به زوجته وأرادته حتى قُيِّض هذا الشاهد من أهلها. والأهل لا يعدلون عن نصرة أقاربهم إلا في مواقف وقوع الحيف على هؤلاء الأقارب. فهو شاهد بعيد عن يوسف (a) من جهة القربى ، قريب منه من جهة الحق. فوجَّه إلى فحص القميص ، وهو الدليل المادي الذي نبه على أنه الحاسم في الأمر ، ومنه يؤخذ الحكم الفصل بمعرفة الوجهة التي قُدَّ منها إن كان من الخلف فهذا يدل على أنه كان يهرب منها وهي تلاحقه فأمسكت به بقوة حتى قدت قميصه من دبر فهو الصادق وهي الكاذبة. وإن كان من الأمام فهذا يدل على أنه كان يجري خلفها وهي تهرب منه فالتفتت إليه وأمسكت قميصه لتطرحه أرضًا أو تحرفه عنها حتى قدت قميصه من قبل ، فهو الكاذب وهي الصادقة (فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ) أصدر العزيز حكمه القاطع عن قناعة وإيمان بـ(إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ) مقويًّا عبارته في ضوء البيان القرآني بأداة التوكيد (إنَّ) التي تفيد غنتها – هنا- شيئًا من التحسر والألم والكبت ، ثم أتبعها عبارتَه المؤكدة بـ(إنَّ): وهي قوله تعالى على لسان العزيز: (إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ) لدفع أية شبهة ، ولرد أدنى ارتياب في أن يوسف (a) هو صاحب الفعلة. وبعد أن حُسم الأمر توجه العزيز إلى يوسف (a) وإلى زوجته قائلاً في ضوء النص القرآني: (يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِين) ملتمسًا من يوسف (a) بلسان المتوسل المعتذر الخائف الذي طأطأ رأسه على الأرض استحياءً من فعل زوجته. التمس منه أن يعرض عن هذا الأمر ولا يبوح به إلى أحد حفظًا لماء وجه العزيز وصونا لسمعته. وأمر زوجته أن تستغفر لذنبها وفعلها ، ثم زجرها بعبارة مؤكدة بـ(إنَّ) زيادة في التوبيخ واستغراقًا في التأنيب وهي (إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِين) باستعمال اسم

---

[22](22) في النحو العربي: قواعد وتطبيق ، د.مهدي المخزومي210. وينظر: معاني القرآن ، الفراء ، تح: محمد علي النجار وأحمد يوسف نجاتي1:166-167. والأزهية، علي بن محمد الهروي، تح: عبد المعين الملوحي183. وأساس البلاغة الزمخشري509. والجنى الداني، حسن بن قاسم المرادي، تح: طه محسن475. وجواهر البلاغة ، أحمد الهاشمي181.

الفاعل (خاطىء) لا (مخطىء) دلالة على القصد السابق لفعل الخطأ والتعمد في إيقاعه. أما مخطىء و (مخطئين) فيراد به إيقاع الخطأ من غير قصد ولا تعمد[23] **(23)**.

12- **كلامه تعالى عن قول نسوة المدينة على فعلة زوجة العزيز ، وبيان موقفها - بعد سماعها ذلك – وما هيأته لاختبارهن وردت به عليهن بعد وقوعهن في الحيرة والدهشة لما رأين يوسف (a):**

قال تعالى: (وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ، فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَـذَا بَشَرًا إِنْ هَـذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ) [30-31].

ذكر لنا الله تعالى – هنا – أن فعلة زوجة العزيز من مراودةٍ ليوسف **(a)** عن نفسه وولهٍ بحبه وهو فتاها الذي في بيتها قد شاعت وانتشر خبرها ، وأخذ جمعٌ من النساء في المدينة ينشر هذا الأمر. إنَّ تحديد قول هؤلاء النسوة بأنه في المدينة يوحي بأن هذا الخبر قد انتشر في مركز الحركة والزخم البشري وأنَّ الفعلةَ لم تعد خافية على أحد ، ولأن المدينة تكون مصدرًا لسواها من الأماكن كونها المركز لكل ما يحيط بها ، وعنها تؤخذ الاحتياجات وتصدر الأخبار والبيانات ، فإنَّ ذكْر خبر فعلة زوجة العزيز فيها يشي بسرعة انتشاره وانتقاله إلى الأماكن الأخرى ، إذ إنه خبر صدر عن مركز القرار والعمل والتجارة والحركة فهو ينتشر بسرعة كبيرة. وكان تناوله على أنه عار لا ينبغي لمثل زوجة العزيز فعله. وإن حديث هؤلاء النسوة عنها يشكل لها صدمة تهز مضجعها وتسلب اطمئنانها. وكان قولهن مؤكدًا بـ(قد) من جهة في قوله تعالى: (قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا) وهو حرف توكيد لمضمون الجملة[24] **(24)** يقرب وقت الفعل الماضي الذي يليه إلى الحاضر **(25)** ، وبهذا تكون الدلالة المقصودة من قولهن – والله أعلم – إشاعة الخبر وترسيخه على أنه ما زال يقع ، وأن امرأة العزيز لا تكف ولن تكف عن فعلتها هذه بدليل قولهن (تراود) وهو فعل مضارع يوحي بالاستمرارية والتجدد. ومؤكدًا بـ(إنَّ) و (لام الابتداء) من جهة أخرى في قوله تعالى: (إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) لترسيخ فكرة أن عملها هذا – من وجهة نظر هؤلاء النسوة – إنما هو خروج عن الصواب وانحدار في مهب الخطيئة والضلال بشكل جلي لا غبار عليه ، وأنهن قد أفصحن عن حنقهن عليها وازدرائهن فعلها هذا.

ووصل خبر قول النسوة ونشرهن الأمر في المدينة إلى امرأة العزيز ، فآلمها ذلك كثيرًا ودفعها إلى دعوتهن وترتيب مجلسٍ خاصٍّ للقائهن بها وبيوسف **(a)** ، لإقناعهن بأن لا سبيل أمامها إلى العدول عن فعلتها المذكورة. ولكي ترى ردة فعل هؤلاء النسوة - بعدما يرين يوسف **(a)** وهو يخرج عليهن لحظة بدئهن تقطيع الفاكهة المقدمة لهن بالسكين الموجود مع تلك الفاكهة - لتهون وتسوِّغ – لو فعلن ما يأخذ بألبابهن وينسيهن أنفسهن – فعلتها وتبين لهن أنها غير ملومة على ما فعلت. فحدث لها ما أرادت ، فهي لم تقطع يدها حيرةً مما رأته فيه وانقطاعًا عن واقعها المحسوس إلى ما هو خيالي واسع ، ولم تصفه بأنه ليس من جنس البشر بل هو ملك كريم. فلما رأى هؤلاء النسوة يوسف **(a)** أكبرنه وقطَّعنَ أيديَهن ، أي أكثرنَ وبالغْنَ في جرح أيديهن من غير شعور لأن إحساسهن انقطع عن العالم الخارجي وعن أجسامهن ، واتصل بخيالهن وما أبهرهن وجعلهن لا يشعرْنَ إلا بجمال يوسف **(a)** ووسامته وروعة خلقته ، وهذه دلالة الفعل (قطَّع) الذي يبين التكثير والمبالغة[25] **(26)** في فعل الشيء لسبب استثنائي يدفع إلى ذلك. ثم أطلق هؤلاء النسوة رأيهن في يوسف **(a)** بقولهن في ضوء البيان القرآني: (مَا هَـذَا بَشَرًا إِنْ هَـذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ) ، فقد سمَون به من مرتبة البشرية – بعد نفي أن يكون بشرًا – إلى مرتبة الملائكة ، واستعملن لذلك – في ضوء بيان النص القرآني - أسلوب التوكيد بوساطة الحصر بـ(النفي وإلا) في قوله تعالى: (إِنْ هَـذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ) ، بحصر خلقته في جنس الملائكة فقط ، بيانًا لانبهارهن بما رأين ، وإعلانًا للاعتذار من زوجة العزيز – بشكل كنائي - وطلب الصفح منها لما صدر منهن عليها. فهذا موضع يستدعي التوكيد ليدل على هذا المعنى.

13- **كلامه تعالى عن دفاع زوجة العزيز عن نفسها وردها على النسوة ، وبيان إصرارها على ما تريد ووعيدها على الرفض:**

قال تعالى:(قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِين) [32].هذا دفاعٌ من زوجة العزيز عن نفسها لمَّا رأت حال النسوة وردة فعلهن لمَّا رأيْنَ يوسف **(a)**. فهي ترد عليهن بما يشي بتسويغ فعلها ويوحي بلومهن وتأنيبهن وتحذيرهن أن يسخرْنَ منها ويشنعْنَ بفعلها ، وقد

---

[23](23) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل 284. وإرشاد العقل السليم 270:4. وفتح القدير28:3.

[24](24) ينظر: الكتاب50:1. وشرح المفصل147:8.

[25](25) ينظر: شرح الكافية387:2. ومغني اللبيب187:1. وهمع الهوامع ، السيوطي، تصحيح: محمد بدر الدين النعساني73:2.

اعترفت لهن بفعلتها ، وهي مطمئنة ألاَّ لومَ عليها بعد الآن ، بل هي معذورة لأي تصرف يصدر منها مع يوسف (a). وجاء اعترافها في ضوء البيان القرآني: (وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ) – بناءً على ذلك – مؤكدًا بـ(قد) المسبوقة بـ(لام) جواب القسم المكتفَى عن ذكره. فاعترافها بالمراودة مشحون بمؤكدين لأنها أصبحت الآن في حال افتخار وزهو واعتداد بالنفس ، ولم تعد تخشى كلام النسوة أو لومَ اللائمين ، لأن من ترى يوسف (a) من النساء لا تستطيع أن تتمالك من نفسها شيئًا بمستوى ما عليه زوجة العزيز ، بل إنهن سيتصرفن بما هو أكثر عجبًا من تصرفها. فجاء كلامها بهذا الاعتراف مؤكدًا لترسيخ مراودتها في أذهان هؤلاء السامعات دونما تردد أو خوف. ثم عادت لتخبرهن بما سمعه يوسف (a) نفسه من تجديد طلبها منه ليطاوعها ويرضخ لغريزتها بقولٍ شديد اللهجة مشحون بالمؤكدات - إذ لم يعد بعدُ ما تخشى منه – فقالت في ضوء النص القرآني: (وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِين) مستعملة خمسة مؤكدات هي: (لام القسم) الداخلة على (إنِ) الشرطية ، و (لام جواب القسم) و (نون التوكيد) كل منهما في موضعين هما (لَيُسْجَنَنَّ) و (لَيَكُونًا).

ومما يأخذ بالفكر ويسحر اللب أن النص القرآني قد بين - بلسان حال زوجة العزيز - أنها استعملت (نون التوكيد) الثقيلة مع الفعل (يسجن) لأنها تستطيع أن تزجه في السجن إذ إنه أمر ميسور لها مقدور عليه ، وهذا ناتج عن اعتقادها الجلي بأنه لن يطاوعها ولن يرضخ لأمرها وغريزتها ولن يحيد عن جادة الحق والتقوى أبدًا مما سيؤدي به إلى أن تنتقم منه بإلصاق التهمة به كي يحق – كما ترى هي – سجنه وعقابه. يدل على ذلك دعاؤه (a) الذي ناجى به ربه عز وجل إذ (قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ) [33]. واستعملت (نون التوكيد) الخفيفة مع الفعل (يكون) المخبَر عنه بـ(مِنَ الصَّاغِرِين) أي من الذين يلحقهم الصَّغار والذل والتسليم لأمر من هو أكثر منه تمكنًا وقوة وسطوة لأنها – على الرغم من ثقتها بسهولة سجنه وتعذيبه - لم تكن واثقة من قدرتها على جعله ذليلاً مطيعًا صاغرًا منفذًا لأمرها وهي تأمل بصورة راسخة ملحة رضوخه لها ، لعلمها بثباته على موقفه وعقيدته وإيمانه. لقد أكدت بقوة ما تقدر عليه ، وأكدت ببساطة ما هي غير قادرة على تحقيقه.

14- كلامه تعالى عن تضرع يوسف (a) إلى ربه ودعائه ليخلصه من هذا الابتلاء الشديد ، واللطفِ الإلهي بإجابة الدعاء:

قال تعالى: (قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ، فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيم) [33-34]. هنا ناجى يوسف (a) ربَّه لِما هو فيه من ابتلاء نتيجة الإصرار الأعمى الذي تمادت فيه زوجة العزيز لتحقيق هواها ، وطلب – في دعائه - السجنَ ووصفه بأنه أحب إليه من الرضوخ إلى ما تريده منه ، والحقيقة أن استعمال صيغة التفضيل (أحب) تدل على شدة الألم الذي كان عليه يوسف (a) حتى ألجأه هذه الألم إلى وصف السجن – وهو ما يُكره ولا يُرجى للنفس أبدًا – بأنه مما يُحب بل هو الأحب في هذا الظرف لأنه المنأى الوحيد والمعتكف البعيد الذي يخلصه من هذا الابتلاء ، ويحقق له – بعون الله تعالى – صرفَ كيد النسوة له ، فهذا الكيد قد يلجئه إلى إلحاق الضرر بنفسه إن اشتد ثباته على موقفه الرافض الذي يؤدي إلى تماديهن بحياكة الافتراءات والتهم المدبرة عليه التي قد تدفع بالآخرين إلى أن يصفوه بالجهل أو يتصوروه كذلكوقد ورد خبر إجابة الدعاء هذا مشحونًا بالمؤكدات لبيان عزة مكانة يوسف (a) في الحضرة الإلهية ، ومدى رعاية الله تعالى وحفظه وحمايته نبيَّه الكريم ، فقد جاء مؤكدًا بأربعة مؤكدات هي: تقديم الجار والمجرور (لَهُ) على الفاعل (رَبُّهُ) في قوله تعالى: (فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ) دلالة على تخصيص الاستجابة له (a) ولفت نظر السامع والقارئ إلى مدى سرعة استجابة الله تعالى دعاء أوليائه وخلفائه والصالحين من عباده. وتقديم الجار والمجرور (عَنْهُ) على المفعول به (كَيْدَهُنَّ) في قوله تعالى: (فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ) للدلالة السابقة نفسها ، والله أعلم. والتوكيد بـ(إنَّ) وضمير الفصل (هو) في قوله تعالى: (إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيم) لأن الربط الوثيق بين دعاء يوسف (a) واستجابة الله تعالى له وبين سماعه تعالى مناجاة وليه ، وعلمِه بحاله وما يتطلبه موقفه من فيض إلهي ولطف رباني أضحى ربطًا جليًّا واضحًا ، ولترسيخ اليقين الثابت من أن الله تعالى يجيب دعاء المتضرعين المتقين المتحيرين من الأولياء والصالحين والتائبين

15- كلامه تعالى عن قرار العزيز والمقربين منه في شأن مصير يوسف (a) :

قال تعالى: (ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِين) [35].

هذا هو القرار الذي توصل إليه العزيز وحاشيته ، وهو زج يوسف (a) في السجن من غيرما جريرة فعلها ، بل لأن العلامات والدلائل تشي بإصرار زوجة العزيز على تحقيق أمنيتها وتماديها في ذلك حتى أعلنت عن شغفها وما

تريد على الملأ من النسوة وهن – بلا ريب – نقلن ذلك إلى سواهن ، وفي هذا هلاك العزيز نفسه إن حصل ما لا يتمنى. فصار الاتفاق إلى اختيار السجن بعد أن اقترحته زوجة العزيز نفسها تخويفًا.

وقد ورد هذا القرار في النص القرآني مؤكدًا بمؤكدين هما (لام التوكيد) و (نون التوكيد الثقيلة) في قوله تعالى: (لَيَسْجُنُنَّهُ) دلالة على حسم الأمر ، وعدم التفاوض والتحاور من جديد لإصدار حكم آخر غير هذا أو أقل منه ، فلا معدى لهم من اختيار هذا المخرج لأن زوجة العزيز لن تكف عن مراودتها مادام يوسف (a) قريبًا منها وتحت أنظارها. وفي هذا القرار والاختيار تنزيه ليوسف (a) وتبرئة له مما ألصق به ، فلو كان قد فعل ما اتهمته به زوجة العزيز لاستحق ما هو أكثر ألمًا وصعوبةً من السجن وهو العذاب الأليم الذي أرادته هي له من زوجها عندما ألصقت تهمة المراودة به إذ قالت في ضوء البيان القرآني: (مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوَءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ). والذي يدل على أنه زبدة المخض قوله تعالى: (ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ) فالفعل (بَدَا) يشي بأنهم قد خاضوا في حوارات كثيرة ونقاشات مستفيضة حتى خلصوا إلى هذا القرار وهذا الحكم بعد أن طرحوا من الدلائل والبراهين ما من شأنه أن يصل بالعزيز وزوجته إلى فضيحة أكبر وإلى مثلبة لا يمكن إصلاحها وصدع لا يسهل رأبه ، فكان الخلاص سجنه إلى إشعار آخر.

16- **كلامه تعالى عن موقف يوسف (a) مع السجينين الموجودين معه وطلبهما تعبير الرؤيا التي رآها كل منهما في السجن ، وجوابه (a) عن ذلك:**

قال تعالى: (وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ، قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ، وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ ، يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ، مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ، يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ، وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ) [36-42]. يتبين موقف يوسف (a) في السجن - مع هذين السجينين وما تفرع فيه من أحداث وحوارات وجدال وتأنيب وتحذير وإخبار وقراءة للغيب بإذن الله تعالى – في هذه الآيات الخمس التي وردت مشحونة وزاخرة بالمؤكدات التي تناغمت معها وجسدت أهمية أحداثها وأضاءت دلالاتها بما يفصح عن شيءٍ من مكنونات النظم وروعة التعبير ودقة القصد.وأول ما يطالعنا من هذه المؤكدات هو تقديم ظرف المصاحبة (مَعَهُ) – وهو مضاف إلى الضمير المكنى به عن يوسف (a) – على المفعول به (السِّجْنَ) للفتِ النظر إلى أن هذين الفتيين قد صحبا يوسف (a) في سجنه ، أو أنهما في حجرته التي سجن فيها ، وللإشارة إلى اختصاصهما به وعنايته بهما ، وهما فتيان ، أي قريبان من عمره ويتمتعان بقوة الشباب وعنفوانه ، وهو (a) كذلك ، فكأن هذا السجن للفتيان فقط عسى أن يلقى يوسف (a) منهم أذى وخوفًا لا يحتمل بسببه أن يبقى في هذا السجن فيُضطر إلى طلب إخراجه وتنفيذ مبتغى زوجة العزيز ولو بالخفاء.وقد أخبر أحدُهما يوسف (a) أنه رأى نفسه في المنام وهو يعصر خمرًا ، مستعملا – كما بين النص القرآني – أداة التوكيد (إنَّ) التي تضفي على العبارة قوة وتثبيتًا وتوحي عن صاحبها بمدى الثقة بالنفس والتمسك بنشر حديثه حتى إذا كان غريبًا أو عجيبًا. وأخبر الآخرُ يوسف (a) أنه رأى نفسه في المنام وهو يحمل فوق رأسه خبزًا تأكل الطير منه مستعملا – كما بين النص القرآني – أداة التوكيد (إنَّ) بما لها من دلالات إيحائية رائعة في التوكيد. وكل منهما واثق مما يقول وقد نقل خبره مستعينًا بما يزل الريب ، ويثبت القصد لدى السامع أو المخاطب. وقد ختما حديثهما هذا بالتودد إلى يوسف (a) ومخاطبته بما هو فيه من الخصال الحميدة وصفات الأولياء مؤكدَين عبارتهما بـ(إنَّ) في قولهما في ضوء النص القرآني: (إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) للإفصاح عن تصورهما عنه (a) وبيانًا لمكانته عندهما وعلو شأنه لديهما ، وأنه ملجأ لهما ومحط لبث حديثيهما مثلما هو شأنه معهما فيما مضى من صحبتهما له في السجن. لقد أرادا منه إنقاذهما وتخليصهما من الهم الذي عرض لهما في ضوء هاتين الرؤيتين.

ثم جاءهما أن التعبير المطلوب لهاتين الرؤيتين مشروط بإحضار الطعام إليهما وأنهما سينبَّآن بتأويلهما قبل أن يأتيَهما هذا الطعام. ولعل في هذا الشرط – والله أعلم – نكتة لطيفة فرؤيا كل واحد منهما تضمنت ما هو من الطعام

، وكأنهما كانا قبل النوم يتوقان إلى طعام معين يتمنيان أكله أو أنهما كانا جائعَين ، فالأول رأى أنه يعصر خمرًا والمعصور هو فاكهة الكروم أو العنب لإنتاج الشراب ، والآخر رأى أنه يحمل خبزًا وهو طعام.

وقد أخبرهما يوسف (a) بعبارة مؤكدة بوساطة أسلوب الحصر بـ(النفي وإلاَّ) أنه (لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا) لبعث الطمأنينة عندهما وبث الأمل في نفسيهما – شوقًا إلى سماع النتائج - من أن لكل رؤيا تعبيرًا واقعيًّا وصدى في عالم الدنيا ، ولإشعارهما بأن ما رأياه إنما هو من باب الترتيب الإلهي الذي يُري المرء ما يستحقه جزاءً على فعل فعله ، إن خيرًا فخيرٌ وإن شرًّا فشرٌّ ، موثقًا عبارته بما لا يسمح لأدنى فكرة من الريب أن تبدوَ وتعِنَّ إذ قال: (ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي) إعلانًا للسامعين ولمن سيسمع بما دار من أن علمه بتأويل الأحاديث ومعجزته الغيبية هذه إنما هو من فضل الله تعالى وتعليمه.ثم انتقل (a) بعبارته إلى ما هو عام لا يخص هذين السجينين فحسب ، بل يراد منه إيصال فكرةٍ مفادها أني منعمٌ بلطف الله تعالى ، وقد ألهمني من علم تأويل الأحاديث ، ومكنني من تعبير الرؤيا ، وبعثني للهداية والإصلاح وإقامة العدل وتحقيق الإنصاف ، وسياسة الرعية بأحكام السماء ، ثم زُججت في السجن من غيرما جريرة فعلتها. وهذا يعني أن القوم الذين كنت فيهم لم يقبلوا هذه الفكرة وكانت صفتهم أنهم (لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ). لذا اختار (a) السجنَ على أن يبقى معهم ويساير مآربهم لأنهم على الخط المضاد لخطه ، ولذا أكد عبارته التي تضمنت هذه الفكرة بـ(إنَّ) فقال في ضوء البيان القرآني: (إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ) دلالة على أنه تركٌ مدروس ومخطط له وهو منقذ وله نتائج إيجابية كثيرة ، ثم بيَّن مؤكدًا بـ(إنَّ) - بوساطة العطف - أنه سائر على النهج القويم ومتبعٌ الملةَ الحق بما يرسخ هذه الحقيقة لدى المخاطبين وليقابل تلك الملة الباطلة التي تركها بهذه الملة الصحيحة التي اتبعها إذ قال في ضوء النص القرآني: (وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ) ، ثم ذكر - بعبارة مؤكدة بوساطة تقديم خبر (كان) وهو الجار والمجرور (لنا) على اسمها وهو (أَن نُّشْرِكَ بِاللّهِ مِن شَيْءٍ) في قوله تعالى: (مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللّهِ مِن شَيْءٍ) دلالة على اختصاصهم هم أولاً بتوحيد الله تعالى وأن غيرهم يأخذ عنهم ، فهم بيت الوحي والتبليغ ، وهم من يأخذ بيد الناس عن جادة الشرك والباطل إلى باحة التوحيد والحق – ذكر الفكْرَ الأساس الذي تقوم عليه هذه الملة الحق وهي التوحيد والخضوع المطلق لله تعالى والإقرار بأنَّ نهجهم هذه المحجة البيضاء ما هو إلاَّ فضل من الله تعالى عليه وعلى آبائه (c) من جهة وعلى الناس من جهة أخرى وهم من يأبى أكثرهم الاعترافَ بهذا الفضل وشكْرَ المفضل عليه إذ قال تعالى حكاية عنه (a) : (ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ). ثم وجه يوسف (a) سؤالاً إلى صاحبي السجن اللذين سألاه تعبيرَ رؤيتيهما فقال والكلام لله تعالى حكاية عنه: (يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) وهو يريد إقرارهم بوحدانية الله تعالى وأنه مصدر القوة لمن سواه ، فمَنْ سواه ضعيف أدى به ضعفُه إلى أن يعبد آلهة عديدة متفرقة لا حول لها ولا قوة. وبيَّن لهم في ضوء البيان القرآني مخاطِبًا بعبارة التأنيب الساخر أنكم (مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ) مؤكدًا قوله هذا بمؤكدين هما الحصر بوساطة (ما وإلا) من جهة ، والضمير المنفصل (أَنتُمْ) المؤكد للضمير المتصل (تاء الفاعل) في عبارة (سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ) دلالة على شدة تفاهة ما تعبدون وأنه من صنعكم أنتم ، وأنتم أصلا مخلوقون مصنوعون ، وكل مصنوع زائل. ثم أوكل أمرهم وشأنهم وما يستحقونه إلى الله تعالى بعبارة مؤكدة بالقصر أيضًا في قوله تعالى: (إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ) ردًّا على كل من يفكر في أن الأنبياء أو الصالحين أو الأولياء يصدرون فتاواهم وأحكامهم على مخالفيهم مثلما يشاؤون. فهذا الأمر موكول إلى الله تعالى وحده ومقتصر عليه. ثم أنَّب المخاطبين ومن يصلهم كلامه (a) بما يذكرهم فيه - إن ادَّعوا الضدَّ من الصواب – بأن عبادتكم الباطلة قد بان خطلها وسخافتها في ضوء أمر الله تعالى إياكم بعبادته وتوحيده واللجأ إليه وحده لا شريك له بعد أن بين لكم وجوب ذلك بالأدلة والآيات والبراهين والتبليغ والنُذُر ، فقال لهم (a) - في ضوء النص القرآني -: (أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ) مستعملاً التوكيد بوساطة القصر بـ(لا وإلا) لترسيخ الفكرة وتثبيت الحجة ودفع الريب والمداهنة ، موضحًا أن الخضوع لهذا المنهج الحق هو (الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ).

وبعد هذا التوجيه والإرشاد الذي يُعد توطئة مهمة سبقت جوابه وتعبيره رؤيا كل من هذين السجينين أخبر (a) كلا منهما بحاله في ضوء الرؤيا التي حدَّث بها. فأخبر صاحب عصْر الخمر بأنه سيُفرج عنه ليعود ساقيًا للملك بقوله في ضوء البيان القرآني: (أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا) مستعملاً الأداة (أما) التي يُراد بها – زيادة على

تفصيل خبريهما وبيانهما – توكيد مضمون الجملة أو العبارة[26] **(27)** ، وأخبر صاحب الخبز بأنه سيصلب ويبقى معلقًا تأكل الطير من رأسه ، مستعملاً (أما) لمتابعة التفصيل وتوكيد الكلام دلالة على حقيقة قوله وتعبيره ودفعًا لأي ريب وإنكار لهذا التعبير بدليل قولـه في ضوء البيان القرآني في ختام تعبيره هذا - ليسد الطريق على من يرفض – بعبارة ملؤها الثقة والعزيمة (قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ) ، وليرسخ في أذهان المخاطبين ومن سيسمع بهذا الأمر أنه مخبَرٌ بوساطة الوحي من الله تعالى الذي أرسله بهذه المعجزة الملائمة لما في زمنه **(a)** من أفكار ، لتكون مفتاحًا لاتِّباعه وتصديق نبوته وبعد هذا العرض الزاخر بالأحداث والمحاورات ذكر الله تعالى ما جرى بين يوسف **(a)** وصاحب الخمر الذي بُشِّر بالنجاة وإطلاق السراح بقوله عز وجل : (وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ) أي عند الملك ليأمر بفتح تحقيق يؤدي إلى كشف الحقيقة وبراءته **(a)** ، وقد جاء هذا التذكير بعبارة مسبوقة بـ(أنَّ) المؤكدة دلالة على تثبيت بشارة النجاة وتحقيقها. إلا أن صاحب الخمر هذا نسي ما أراده منه يوسف **(a)** ولم يخبر الملك وقت عودته إليه مما أدى إلى لبث يوسف **(a)** في السجن بضع سنين لقوله تعالى: (فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ) وأنا أنأى بنفسي عن أن أخذ بما رآه جملة من المفسرين من أن الذي نسي ذكر ربه هو يوسف **(a)** وأنه لجأ إلى معونة الملك بوساطة صاحب الخمر الناجي ، فاستحق - لذلك - بقاءه في السجن بضع سنين[27] **(28)**. لأن في هذا التوجيه طعنًا بنبوة يوسف **(a)** وهتكًا لعصمته وتقليلاً لشأنه ، وإقرارًا بأن للشيطان سلطانًا قويًّا على الأنبياء يجعلهم ينسون الله تعالى أحيانًا. والحقيقة أن الأنبياء – وإن تفاوتوا فيما بينهم – منزهون مبرؤون عن هذه الأباطيل وأمثالها. وقد أخبر الله سبحانه في سورة الحِجْر أنّ إبليس – ومن تبعه - لا سلطان له على عباده المخلصين ، في ذكره ما دار بينه وبين إبليس من محاورة في قوله تعالى: **(**قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ، إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ، قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ، إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ**)** [39-42] ، ويوسف **(a)** من عباد الله المخلَصين الذين لا يمكن للشيطان أن يغويَهم وليس له عليه سلطان ، قال تعالى: (كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِين) [يوسف/24]. والدليل على أن الذي أنساه الشيطانُ التذكيرَ هو صاحبُ الخمر نفسه لا يوسف **(a)** قوله تعالى عن هذا الساقي: (وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَاْ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُون) [45] و(الأُمَّةُ) في هذه الآية معناها النسيان ، وهو ما ذهب إليه جملة من المفسرين[28] **(29)** ، فالذي نسي والذي ذكر بعد نسيانه أمرَ يوسف **(a)** هو الساقي الناجي[29] **(30)**.

17- كلامه تعالى عن رؤيا الملك وطلبه من حاشيته وكهنته تعبيرها له ، وبيان ضعفهم بعدهم إياها أضغاث أحلام:

قال تعالى: (وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ، قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلاَمِ بِعَالِمِين)[43-44]لقد مثّل ما مر بيوسف **(a)** حتى وصل إلى تعبيره رؤيا صاحبيه في السجن مفتاحًا لمدخل هذا المنعطف الجديد الذي يعد نقطة التحول المصيرية في حياته **(a)**. فبعد أن ثبت صدقه ومعجزته في تعبير الرؤيا شاء الله تعالى أن يرى ملكُ مصر – آنذاك – هذه الرؤيا الخطرة التي أقلقت مضجعه وأرعبته وأدخلت الرهبة في نفسه ، إذ إنه لم ير ولم يسمع بمثلها من قبل. وقد أخبر الملك برؤياه هذه مستعملاً – في ضوء النص القرآني - أداة التوكيد (إنَّ) في قوله تعالى: (إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ) مصحوبة بمؤكد آخر هو تقديم المفعول به الضمير (هُنَّ) على الفاعل (سَبْعٌ) في (يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ) دلالة على تحقيق صدق هذه الرؤيا وإزالة التجوُّز أو الريب الذي قد يخالج السامعين. ولم يكتف الملك بهذين المؤكدين بل استعمل مؤكدًا ثالثًا في عبارته التي ختم بها ذِكْر رؤياه وهي (يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ) وهذا المؤكد هو تقديم ما حقه التأخير ، أي تقديم جواب الشرط (أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ) على أداة الشرط وجملته وهي في ضوء البيان القرآني

---

[26](26) ينظر: الكتاب ، تح: د.عبدالسلام محمد هارون2:237. وإصلاح المنطق ، ابن السكيت145. وديوان الأدب الفارابي2:338-379. والمخصص ، ابن سيدة14:173- 174. والمفصَّل281. وشرح الكافية 2:387. ومغني اللبيب1:187. وهمع الهوامع 2:73.

[27](27) ينظر: الأصول في النحو1:62. ومنازل الحروف ، الرماني ، تح:د.مصطفى جواد، ويوسف يعقوب مسكوني74. وشرح ابن الناظم 279.

[28](28) ينظر: جامع البيان12:291. وتفسير العياشي ، محمد ابن مسعود العياشي2:176. ومعاني القرآن ، النحاس3:429. وأحكام القرآن 3:224. والجامع لأحكام القرآن 9:195. والأصفى في تفسير القرآن ، الفيض الكاشاني1:572. وبحار الأنوار12:302. وفتح القدير3:29. ومستدرك سفينة البحار ، الشيخ علي النمازي4:45.

[29](29) ينظر: زاد المسير4:177.

(إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ) دلالة على لفت النظر وشحذ الهمم والحث على الفتيا وبيان القول الفصل في تعبير هذه الرؤيا ، لأن هذا الأمر قد أضحى شغله الشاغل.

وقبل أن يذكر المعنيون بالحديث - ممن طلب منهم الملكُ الفتيا والتعبير – جوابَهم الاعتذاري عن تأويل هذه الرؤيا مهَّدوا لذلك بقولهم في ضوء النص القرآني: (أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ) لتهوين الأمر وتقليل شأنه ، ودفع الملك إلى عدم الاكتراث بما رأى والنأي بنفسه عن همِّ التفكير وقلق التعبير ، ليجعلوا منه مستعدًّا – وهم مطمئنون – لأن يقبلَ اعتذارهم ويعذرهم لبساطة قدراتهم في مثل هذه المواقف ، فجاؤا باعتذارهم منفيًّا بـ(ما) وقد دخل على خبرها حرف (الباء) الذي قيل: إنه (زائد) للتوكيد[30] **(31)** لجعل اعتذارهم أكثر قبولاً ، ولإبلاغ الملك بحقيقة قدراتهم ليجعلوا منه غيرَ معتمدٍ عليهم في الحصول على جواب شافٍ كافٍ.

18- **كلامه تعالى عن طلب الساقي إرساله إلى يوسف (a) بعد تذكره وإخباره الملك بشأنه وقدرته المعجزة على تعبير الرؤيا ، ونقله هذه الرؤيا إلى يوسف (a) :**

قال تعالى: (وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَاْ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ، يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ، قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ ، ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ ، ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُون) [45-49]. بعد أن وقف المقربون من الملك والكهنة المعتمدون لديه عاجزين أمام تعبير هذه الرؤيا ادَّكر الساقي الناجي يوسفَ **(a)** وأنه أوصاه أن يذكر خبره عند الملك من قبل ، فبشر الملكَ بأنه يستطيع إنباءه بتعبيرها لو أرسلوه إلى يوسف **(a)** وهو في السجن. فلما جاءه وأطلعه على رؤيا الملك انطلق لسان النبي يوسف **(a)** مسترسلاً بتعبيرها دونما اعتذار أو ضعف أو إحجام. وهذا إشعار للآخرين بأنه ما ينطق عن الهوى بل هو إلهام إلهي وإعجاز رباني لإثبات نبوته وصدق حديثه وسمو شأنه ومنزلته بطريق إطلاع الله تعالى إياه على أحداث مستقبلية مصيرية. فذكر لهم حقيقة ما سيحل بهم وأخبرهم بأن قحطًا وجدبًا شديدًا سيقع عليهم بعد سبع سنين من الوفرة وكثرة الإنتاج الزراعي والحيواني ولاسيما في المحاصيل الزراعية الاقتصادية كالحنطة والشعير والرز وفي الأبقار والمواشي الأخرى ، لذا يجب عليهم أن يستعدوا لسني الجدب السبع اللاحقة بأن يحرزوا ويدخروا لها من نِتاج سني الرخاء السبع التي تسبقها وإخراج ما يؤكل فقط ، وقد استعمل في كلامه على سني الجدب والقحط السبع التوكيدَ بتقديم (مِن بَعْدِ ذَلِكَ) على الفاعل (سَبْعٌ) في قوله تعالى: (ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ) دلالة على مدى حرصه في حث الناس على الاستعداد لهذا الخطر الآتي وأن همهم يجب ألاَّ يكون لما هم فيه فحسب بل يجب أن يصبوا جهدهم وطاقاتهم ويحصنوا أنفسهم لما سيأتي بعد سبع سنين من الرخاء والوفرة والاستقرار. واستعمل التوكيد بوساطة التقديم نفسه المذكور آنفًا في كلامه على عام الرخاء الذي سيأتي عليهم زاخرًا بالغيث وكثرة الثمار والفواكه والمزروعات في قوله تعالى: (ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُون) دلالة على بعث الأمل القوي في نفوس السامعين والمعنيين ودفعهم نحو اللجأ إلى الله تعالى وأخذ التوجيه منه **(a)** لمواجهة المحنة القابلة عليهم.

19- **كلامه تعالى عن تلهف الملك للإتيان بيوسف (a) ، ورده على هذه الدعوة الشخصية بما يعيد له حقه بنشر براءته والتعريف بشأنه بوساطة إقرار النسوة وامرأة العزيز بالخطيئة والكيد وتنزيه يوسف (a) مما ألصق به:**

قال تعالى: (وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ، قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ، قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ، ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِين ، وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيم) [50-53]. وصل إلى علْم الملك أن ثمة سجينًا بهذا المستوى من العلم والصلاح والتقوى ، وأنه استطاع حل هذا اللغز المحير والرؤيا المقلقة ، فأمر الملك بإخراجه وإحضاره إلى بلاطه ، وقد ذكر الله تعالى مجيءَ رسول الملك إلى يوسف **(a)** في قوله تعالى: (فَلَمَّا جَاءهُ الرَّسُولُ) بعبارة مؤكدة بوساطة تقديم المفعول به وهو الضمير (الهاء) على الفاعل (الرسُولُ) وهو تقديم واجب ، دلالة على أهمية من جيءَ إليه وأنه هو الغاية التي أَرسَل إليها الملك. فرد

---

[30](30) ينظر: زاد المسير4:177. والجامع لأحكام القرآن9:196. تفسير القرآن العظيم2:497. وقصص الأنبياء ، ابن كثير الدمشقي ، تح: مصطفى عبدالواحد1:328. وسبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ، محمد بن يوسف الصالحي الشامي تح: الشيخ عادل أحمد11:481. وأبو هريرة ، السيد عبدالحسين شرف الدين 82.

عليه يوسف (a) بطلب يتحصل منه رد الاعتبار ونشر براءته من التهمة التي ألصقت به وأدت إلى زجه في السجن عنوةً ، إذ طلب من هذا الرسول أن يرجع إلى الملك ليبلغه بوجوب التحري عن سبب سجنه ، وربط ذلك بخبر النسوة اللاتي أبهرهن يوسف (a) حتى انقطعن عن العالم الحسي الذي هنَّ فيه وسرحنَ في عالم خيالي واسع غطَّت فيه صورةُ يوسف (a) ومحيَّاه وهيبتُه فضاءاتِ ذلك العالم فأدى بهنَّ هذا السروح إلى تقطيع أيديهن بلا شعور منهن بألم ذلك وأذاه عليهن. ومن نتائج هذا التحري تُعلن براءته ويخرج مما هو فيه كي يُستثمر ما عنده لصالح الأمة والدولة. وختم طلبه هذا إلى الرسول بعبارة مشحونة بالتوكيد وهي قوله تعالى: (إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ) مستعملاً (إنَّ) وتقديم ما حقه التأخير أي تقديم الجار والمجرور (بِكَيْدِهِنَّ) على خبر (إنَّ) وهو (عَلِيمٌ) تثبيتًا لبراءته وترسيخًا لدى الملك للعلم بالكيد الذي أردنَه ليوسف (a).

ثم يأتي بعد ذلك النص القرآني الذي يبيِّن وقوع التحقيق والمساءلة مع النسوة ، وهو ما أراده يوسف (a) من الملك ، بقوله تعالى على لسان الملك: (مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ) فجاء جواب التنزيه والبراءة الكبرى على لسان النسوة إذ (قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ). ولم يقف أمر التنزيه عند هذا الحد بل تجاوزه إلى إعلان زوجة العزيز – بعد سماعها بهذا التحقيق وهذا التنزيه المجمع عليه - براءته الواضحة والقاهرة بشدة لما هو ضدها من التهم التي حيكت عليه إذ قالت في ضوء البيان القرآني: (الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ) باستعمال الفعل (حَصْحَصَ) الذي يراد به البيان الغالب بعد الخفاء والتمويه وظهور الحق بقوة تدمغ كل ما يقف أمامه بالضد ، فإنَّ لتكرير المقطع (حص) مرتين أثر صوتي ودلالي كبير في تقوية التنزيه وتثبيت البراءة لما لصوت (الحاء) من حثيث ولما لصوت (الصاد) من صفير واستعلاء وصدى ، وهو تكرير يوحي بالترديد والتثبيت والتوكيد. ثم أعلنت بعد هذه المقدمة - التي سلمت بها إلى الحق والأمر الواقع – براءة يوسف (a) بقولها المؤكد بمؤكدين في ضوء البيان القرآني: (أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ) إذ أكدت بـ(إنَّ) و (اللام) شحنًا لعبارة البراءة والتنزيه هذه بكل ما يثبت له ذلك ويرسخه في أذهان السامعين والسائلين ، ويدرأ عنه التهمة والافتراء بشكل قاطع لا جدال فيه. ثم استرسلت – والعبارة تحتمل أن تكون لها - بما يشي ليوسف (a) بالتقرب منه وأنها حفظت له من حقوقه ما لا يمكن غمطه إذ قالت مؤكدة عبارتها في ضوء النص القرآني: (ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ) أي لم أدع عليه التهمة مرة أخرى بعد هذه النتائج التنزيهية الكبيرة ، بل أعلنتُ براءته واعترفتُ بخطئي وتعمدي الفعلةَ المعروفة بشكل راسخ لا مراء فيه. وزادت تقوية ذلك بعبارتها في ضوء قوله تعالى: (وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِين) وهذه عبارة مؤكدة بـ(أنَّ) فيها تصريح شديد بالتوبة وتأنيب النفس وسد الطريق على من يحاول مثل هذا الكيد والمراودة بينت فيها أن فعلتها لم تعد خافية على أحد ، بل ثبت ما هو ضدها بأمر الله تعالى بشكل قاطع لأن طريق الخيانة مسدود ولا منفذ منه.

أما إذا كانت هذه العبارة ليوسف (a) أي أنه هو الذي قال في ضوء البيان القرآني: (ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِين) ، فإن التوكيد فيها بـ(أنَّ) مرتين في (أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ) و (أَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِين) يدل على بيان صدق دفاعه عن نفسه فيما مضى بشكل ثابت لا يقبل الشك والنقاش ، وأن دفاعه هذا أمر كان يجب على العزيز أن يعلم به ثقة وقبولا والتزاما ، وأنه (a) يحفظ الأمانة ويصونها في غيابه كفعله ذلك في حضوره. وتقوية لإزالة أي شك ولبس يمكن أن يَخطُر على بال أحد من أن الخائن قد ينجو بفعلته ، أو أن يظفر بمراده دونما عقوبة أو فضيحة. فأراد (a) أن يوصل إلى مسامع العزيز دلائل براءته وصدق دفاعه عن نفسه وعلى رأسها أن الله تعالى قد حفظه واكتنفه برعايته ولطفه حتى نجا من السجن والتهمة. فهو ليس بخائن ولا منكر لإكرام مثواه والإحسان إليه فيما مضى وأخيرًا سوَّغت وهوَّنت على نفسها شدة الحر ج الذي مرت به بقولها المؤكد - الذي أوضحت فيه بقوة وإصرار جنوحَ النفس نحو الخطيئة - في ضوء النص القرآني: (وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيم) فعبارتها مؤكدة بـ(إنَّ) و (اللام) فيما قاله تعالى: (إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ) مبينة أن رحمة الله تعالى هي التي أنقذتها من الاستمرار في فعلتها والإصرار على اتهام يوسف (a) ، فكف النفس عن التمادي في السوء رحمة إلهية عظمى. وقد زاد ارتياحَها لهذا الاعتراف على نفسها إيمانُها الواضح بإمكانية الشمول بالمغفرة والرحمة الإلهية ، فجاءت عبارتها الأخيرة التي ترجو فيها من الله تعالى الغفران والرحمة مؤكدة بـ(إنَّ) في قوله تعالى: (إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيم) لشدة شوقها إلى هذه المغفرة ولشدة مؤاخذتها نفسَها على هذا الطيش. وهذا اعتراف أخلاقي طيب وخضوع إلى الله تعالى يحسب لها. ولست أرى أن هذا النص (وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيم) من كلام يوسف (a) لأن نفسه الزكية لا تأمر بالسوء أبدًا ، فكيف يتهم نفسه ولا يبرؤها وقد قال عنه الله تعالى: (كَذَلِك لِنَصْرِفَ عَنْهُ

السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِين) [24]. فمن صُرف عنه السوء لا تأمر نفسه به ، لأن النفس لا تأمر بما لا تعرف.

20- كلامه تعالى عن تكرير الملك دعوتَه للإتيان بيوسف (a) وأنه يريده خالصًا له مقربًا لديه ، وبيان طرح الملك هذا الطلب على يوسف (a) ، ورد يوسف (a) بالقبول شرط أن يمسك بزمام بيت المال وتوزيع المؤونة والميرة لإنقاذ الأمة من القحط القادم والشدائد المقبلة:

قال تعالى: (وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مِكِينٌ أَمِينٌ ، قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيم) [54-55]. هنا اتضحت معالم الأمور وحقائقها لدى الملك بشكل جلي لا غبار عليه ، فأعلن الملك شدة شوقه إلى التعرف على يوسف (a) والتماسه ليكون مقربا منه ومستشارًا له. فلما وقع المراد وتحاورا عما جرى وعن الرؤيا وأهميتها أعلن الملك - بعبارة زاخرة بالتوكيد - قراره بجعل يوسف (a) ذا شأن سامٍ في بلاط الحكم فقال في ضوء البيان القرآني: (إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مِكِينٌ أَمِينٌ) بوساطة (إنَّ) من جهة ، وتقديم كل من الظرفين (الْيَوْمَ) و (لَدَيْنَا) على خبري (إنَّ) وهما (مِكِينٌ أَمِينٌ) من جهة أخرى ، لإعلان المنعطف الزمني الجديد - الذي بدأ الآن في ضوء الظرف (الْيَوْمَ) - لشأن يوسف (a) في البلاط ، ولبيان التقريب الشديد الذي لا لبس فيه ليوسف (a) من الملك وقراراته في ضوء الظرف (لَدَيْنَا) ، لترسيخ النية الصادقة - لتنفيذ هذا القرار – في ذهن يوسف (a) وسواه ممن يسمع بهذا الأمر ، ولإعلان البلاط بشخص الملك أن يوسف (a) صالح منزه وعزيز لم يفكر طرفة عين في أن يخون العزيز أو سواه من الخلق. ومن يتصف بهذا الثبات الأخلاقي الكبير وهو يمر بابتلاء يعصب الصبر فيه أجدر أن يكون على خزائن الأرض لأنه أمين نزيه عفيف متقٍ.

وبعد أن عرف يوسف (a) بحقيقة تصور الملك عنه وأنه أضحى ذا شأن جليل القدر عنده طرح بين يدي الملك رغبته في إنقاذ الدولة والشعب من ضيق وقحط سيمران بهما فيما يأتي من سنين ، بأن يكون متوليًا زمام الأمور في إدارة اقتصاد الدولة وضبط ذلك ، وتوزيع المؤونة بالشكل العادل اللائق بما يحافظ على الشعب من الهلاك وخطر الجوع والفقر. فثمة محنة تلوح بالأفق ستحل على أهل مصر ، ولا طاقة لأحد بتحمل إدارة اقتصاد الدولة ورعاية خزائنها بما فيها من نقد ومؤونة ومحاصيل إلا يوسف (a). فعبَّر عن ذلك بعبارة ملؤها العزيمة والإقدام والثقة بالنفس في ضوء البيان القرآني (اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيم) باستعمال أداة التوكيد (إنَّ) ليؤكد اتصافه بالحفظ لما بين يديه وما يؤتمن عليه من جهة ، واتصافه بالعلم بمفاتح الأمور وتدبيرها من جهة أخرى. فهو يقول إني زعيم بأن كل ما في مصر من محاصيل ومؤن وغذاء ونقد سيكون بالحفظ لأنني لا أُفرِط بشيءٍ ولا أُفرِّطُ فيه ، وأعلم بطرق التصرف والتعامل في هذا الظرف وسواه.

21- كلامه تعالى عن نعمته على يوسف (a) وأن ما مر به إنما هو تمهيد لإيصاله إلى هذا المستوى:

قال تعالى: (وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاء نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ، وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُون) [56-57] بين لنا رب العزة جل وعلا أن ما مر به يوسف (a) إنما هو تمهيد لإيصاله إلى امتلاك زمام الأمور في قيادة مصر دولة وشعبًا ، وإلى سعة التصرف في تسيير شؤون الشعب بعد تقريبه المطلق من الملك وتخويله الوارف فيما يراه مناسبًا لأنْ يفعله. وهذا كله فضل ولطف من الله تعالى بنبيه (a) ، وهو أجر وجزاء له في الدنيا ، فما بالك بأجره في الآخرة وهو على رأس المؤمنين المتقين آنذاك ؟ ولهذا جاء كلامه تعالى (وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُون) مؤكدًا بـ(اللام) زيادة في تنبيه السامعين على العمل الدؤوب والسعي الحثيث في خدمة الناس والبناء والرقي والتقدم حتى يكون ذلك موجبًا للأجر الكبير في الآخرة.

22- كلامه تعالى عن مجيء إخوة يوسف (a) إليه ، ومعرفته بهم ، وتجهيزه إياهم بحصتهم وطلبه منهم إحضار أخيه (بنيامين) محتجًا عليهم بأنه يفي لهم ولغيرهم بما يحتاجون إليه بالحق فعليهم أن يفوا له بما طلب ، وتحذيره لهم بقطع المؤونة عنهم إن لم يحضروه له:

قال تعالى: (وَجَاء إِخوة يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ، وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَاْ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ، فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلاَ تَقْرَبُون ، قَالُواْ سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُون) [58-61] وهنا وصل الإخوة إلى محل تواجد يوسف (a) وموضع إدارته لشؤون الميرة والمؤونة وتوزيعها على الناس ، فدخلوا عليه فعرفهم دونما تأمل وسروح في معرفتهم ، ولعل السبب في سرعة تعرفه عليهم – والله أعلم - أنهم لا يزالون على حالهم التي فارقهم عليها إذ لم يُغَيَّر شيءٌ فيهم من جهة ولأنه (a) يمتلك من العلم والفراسة والفطنة ما يمكنه من معرفة من يلتقيه من جهة أخرى. أما هم فلم يعرفوه بسبب ما

أنعم الله تعالى عليه به من أسباب الدعة والرخاء وطيب المقام ، فجاءت عبارة جهلهم بشخصيته وهي الجملة الإسمية (وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ) مؤكدة بوساطة تقديم الجار والمجرور (لَهُ) على الخبر (مُنكِرُونَ) إشارة إلى استحالة أن يخطر ببالهم أن من وقفوا أمامه إنما هو أخوهم الذي غيبوه وظنوا أنه هلك منذ زمن ، بسبب الهيأة الجليلة الخاصة التي رأوا يوسف (a) عليها. فدل هذا التقديم أن معرفته (a) قد عميت عليهم من أول مقابلتهم له.

ثم جرت بسبب هذه المقابلة محاورة لطيفة القصد بين يوسف (a) وإخوته ، فقال لهم في ضوء البيان القرآني بعد منحهم حصتهم من المؤونة: (ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ) ، وأراد أن يدق في أذهانهم وعقولهم ناقوسَ التذكير والتأنيب والتبكيت. فهم قد ضحَّوا من قبل بأخٍ لهم من أبيهم ، مما يجعل من كراهيتهم يوسف (a) وأخاه دافعًا لأن يفرِّطوا بأخيهم الآخر من أبيهم وهو (بنيامين) مثلما فرَّطوا بأخيهم الأول يوسف (a) من قبل ، فقدَّم لهم – كي ينفذوا له طلبه – الإغراء والتشجيع والتحفيز بقوله ووعده المؤكد في ضوء البيان القرآني: (أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَاْ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ) باستعمال (أنَّ) لبيان شدة إنصافه في العطاء وإجزاله المنحة ، وإنزاله الحق في موضعه وعدم بخسه شيئًا من حقهم ، وأنهم عشرة إخوة لكل منهم حصةٌ قابلة للزيادة للحادي عشر إن أحضروه إليه ، وهم يستطيعون تنفيذ طلبه هذا لعلمه بأنهم غير معنيين ببقاء أخيهم (بنيامين) معهم ، وأنهم لا يكترثون لأمره كفعلهم به من قبل ، ولأنهم يجنحون إلى التضحية به لأجل ما يخدمهم. ثم أنذرهم بالوعيد إن أبوا إحضاره قائلا في ضوء البيان القرآني: (فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلاَ تَقْرَبُون).وهنا يأتي رد الإخوة الإيجابي بتنفيذ مطلب يوسف (a) دونما تردد أو تأنيب أو اعتراضٍ من أحدهم على التفكير والقطع في الإقدام على هذه الفعلة ، فقطعوا على أنفسهم عهدًا لا تردد فيه إذ قالوا في ضوء النص القرآني: (سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُون) مؤكدِّين قولَهم هذا بثلاثة مؤكدات هي: تقديم الجار والمجرور (عَنْهُ) على المفعول به (أَبَاهُ) دلالة على قصدهم (بنيامين) وأنه محور الحديث والفكرة ومعقد الكلام وهو الهم الشاغل الذي يتقدم ذكره على سواه في الحديث ، و (إنَّ) و (اللام) دلالة على عزمهم الذي توقدت جذوته واشتد حماسه لجلب أخيهم (بنيامين) دونما أدنى تأنٍ في التنفيذ. إذ لا معدى لهم من تنفيذ الأمر. فهم في هذا الرد المؤكد انتقلوا من حال الاتفاق المبدئي على المراودة والتحايل على أبيهم لاصطحاب أخيهم إلى حال القطع المفروغ منه لتنفيذ هذا الاتفاق.

23- كلامه تعالى عن أمر يوسف (a) فتيانه بجعل بضاعة إخوته في رحالهم ليطمئنوا إليه ويتيقنوا من أنه لا يريد بهم سوءً حتى ينفذوا له مطلبه ، وعن عودتهم إلى أبيهم وإبلاغه بحجب المؤونة عنهم إلا إذا أخذوا معهم أخاهم (بنيامين) ليزدادوا حملَ شخص إضافي ، وما جرى بينهم وبين أبيهم (a) من حوار وجدال أعطوا فيه أباهم المواثيق والعهود لحفظ أخيهم: قال تعالى: (وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُواْ بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ، فَلَمَّا رَجِعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُواْ يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ، قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ، وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَاعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَـذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ، قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ، وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُون) [62-67].

بعد انتهاء المقابلة بين يوسف (a) وإخوته وخروجهم من عنده أمر فتيانه بجعل مؤونتهم في رحالهم ليوصلوها إلى أهله وليطمئنوا إليه وينفذوا مطلبه ، رجع الإخوة إلى أبيهم وهم لا يعلمون بأنهم يحملون بضاعتهم كاملة وقالوا له في ضوء البيان القرآني: (مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) فأكدوا قولهم هذا بتقديم الجار والمجرور (مِنَّا) على المسند إليه (الْكَيْلُ) في قوله تعالى: (مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ) تنبيهًا على أن حقنا لم يعطَ لنا لسببٍ مانع ، ودفعًا لأي تردد في قبول هذا الخبر. ثم طلبوا منه ما ينفذون به أمر صاحب العطاء وهو أخوهم يوسف (a) فقالوا: (أَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ) مؤكدين بتقديم الظرف (مَعَنَا) على المفعول به (أَخَانَا) إشارة إلى لزوم استصحاب (بنيامين) معهم وأنه لا ضير من ذلك بمعيتهم وما ألزموا به أنفسهم من حفظه ، ولترسيخ هذا الأمر في ذهن أبيهم (a). ثم قطعوا له العهد نفسه الذي قطعوه فيما مضى له لما أرادوا اصطحاب يوسف (a) معهم ليرتع ويلعب ، إذ قالوا في ضوء البيان القرآني: (أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون) [12] فقالوا له هنا عن (بنيامين) أيضًا: (وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) وهو قول مؤكد بثلاثة مؤكدات هي: (إنَّ) وتقديم الجار والمجرور (له) على الخبر (حافظون) و (اللام) فهو قول مشحون بالمؤكدات لدفع الإنكار الذي يشعرون به من أبيهم على طلبهم الجديد هذا ، إذ إنهم يعلمون بأنهم قد أعطَوا سابقًا هذا العهدَ نفسه لما طلبوا اصطحاب يوسف (a) معهم ولم يبروا به. فلسان

حالهم يقول لأبيهم: لا تتردد هذه المرة ولا ترتب في عهدنا لأننا لا يمكن أن نُطيحَ بأنفسنا أمامك مرة أخرى ، ولا نرغب في أن نكونَ ناكثين للعهد بعد أن رأينا ما حل بنا بسبب عدم التزامنا بعهدنا الأول. وهنا يأتي رد يعقوب (a) بقوله في ضوء البيان القرآني: (هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) موهنًا من عزيمتهم على اعتماد عهودهم ومواثيقهم لأنهم لم يفوا بمثل هذا العهد مع يوسف (a) من قبل ، وأوكل أمر حفظه إلى الله تعالى إشارة ضمنية منه إلى موافقته على إرساله معهم لثقته المطلقة بحفظ الله تعالى له ولشدة حاجة أهله إلى الزيادة في المؤونة والميرة التي تعتمد على زيادة الأشخاص الذاهبين إلى جلب تلك المؤونة. بعد ذلك عمدوا إلى رحالهم لينزلوها ، والظاهر أنها ضخمة وكبيرة قبل جعل بضاعتهم فيها لأنهم لم يعلموا بأن بضاعتهم قد ردت إليهم في رحالهم عندما أقفلوا من مصر راجعين إلى ديارهم (وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَاعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ) فأخبروا أباهم بأنهم لا يريدون شيئًا زائدًا لا فائدة منه ولا يضمرون سوءً بقولهم في ضوء النص القرآني: (يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَـذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ) فهذه الغاية عندهم ، وهي على الرغم من أهميتها في عرفهم إلا أنها هينة ولا وزن لها مقابل ذهاب (بنيامين) معهم وهو عزيز أبيه الذي يشم فيه عرف يوسف (a) ويأنس به عند تفكيره بفقيده فـ(ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ) ، أي ما شأن الكيل وزيادة المؤونة مقابل ذهاب (بنيامين) ؟!وهنا يأتي تصريح يعقوب (a) بموافقته على إرسال (بنيامين) معهم شرط إتيانهم إياه موثقًا من الله يطمئن بموجبه إلى إرساله معهم ، فشدد عليهم ذلك بالتوثق من عهدٍ لا تفصم عراه يقتنع به من إرجاع (بنيامين) إليه بعد حصولهم على (كَيْلَ بَعِيرٍ) زائد على ميرتهم الطبيعية ، إذ قال في ضوء البيان القرآني: (لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ) مؤكدًا عبارته هذه بـ(اللام) و (نون التوكيد) اللذين يمنحان الكلام قوة وتثبيتًا وشدة في إلزام المخاطب به إلى المراد منه ، مستثنيًا حالهم إذا تعرضوا إلى أمر قاهر لا قدرة لهم على رده ، وكأنه ألمح بقوله: (إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ) إلى إحساسه بأن أمرًا ما سيُبعد عنه (بنيامين) أيضًا ، وهو مستعد لتحمل هذا البعد إن كان بقهر وقوة تغلبهم. فالشيء الأهم عند يعقوب (a) – في الحال الطبعية - هو إرجاع (بنيامين) إليه وإتيانه به كي تقر عينه ويطمئن قلبه ويهدأ باله. ففعلوا ذلك و (آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ) الذي أراد ، وبعد اطمئنانه إلى صنيعهم (قَالَ اللّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ) ، ولما عزموا على السفر مرة أُخرى كي يبروا بوعدهم ليوسف (a) ويحصلوا على مؤونة إضافية أوصاهم أبوهم (a) بقوله في ضوء البيان القرآني: (يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللّهِ مِن شَيْءٍ) كي يجنبهم أذى الحسد على اجتماعهم وحسن صورهم وضخامة أجسامهم وما يتفرع عن ذلك من قوة واتحاد وتآلف ، أو ليتفرقوا ويتسعوا في البلاد علَّ أحدهم يسمع شيئًا عن يوسف (a)[31][32]. وقد نبه بقوله في ضوء البيان القرآني (إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ) – وهي عبارة مؤكدة بوساطة القصر بـ(النفي وإلا) - على أن كل شيء يقع ويجري لا يكون إلا بحكم الله تعالى وبمشيئته ولا يمكن لأحد الامتناع عن قدرته وإرادته وأنه سيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ، وزاد على ذلك ما شدد به عليهم إذ أوكل أمره وما سيقوم به إلى الله تعالى فقال: (عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ) مؤكدًا عبارته هذه بتقديم الجار والمجرور (عَلَيْهِ) على الفعل (تَوَكَّلْتُ) دلالة على حصر التوكل عليه تعالى وحده ، وأنه لا ملجأ له – ولغيره – إلا إلى الله تعالى. ودعا بعد ذلك – بعبارة مؤكدة للترسيخ والتثبيت ولفت النظر – من سواه إلى سلوك هذا السبيل واعتماد هذا المبدأ بقوله في ضوء النص القرآني: (وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُون) ، وهي عبارة مؤكدة أيضًا بتقديم الجار والمجرور (عَلَيْهِ) على الفعل (يَتَوَكَّل) وفاعله (الْمُتَوَكِّلُون).

24- كلامه تعالى عن التزام إخوة يوسف (a) بتوجيه أبيهم ودخولهم من أبواب متفرقة ، وبيان شأن يعقوب (a) عند الله تعالى وبيان جهل أكثر الناس بالحكمة الإلهية:

قال تعالى: (وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللّهِ مِن شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ) [68].

يبين هذا النص الكريم مدى التزام الإخوة بوصية أبيهم يعقوب (a) من جهة نهيه إياهم عن الدخول من باب واحد ، وتوجيههم إلى الدخول من أبواب متفرقة لما أراده يعقوب (a) من حفظ لأبنائه وحماية لهم من الحسد أو لما طلبه منهم من تقصٍّ حقيقي عن أحوال يوسف (a) وأخباره ، علَّ أحدهم – في أحد المواقع – يسمع شيئًا عن يوسف (a) ، وقد نفذ الأبناء هذا الأمر والتوجيه. وبسبب من هذا التوجيه ذي المغزى وسواه مما كان عليه يعقوب (a) من حكمة وفراسة وصفه اللهُ تعالى بعبارة مؤكدة بـ(إنَّ) و (اللام) بقوله عز وجل: (وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ

---

[31](31) ينظر: الكتاب307:2. والمقتضب ، أبو العباس محمد بن يزيد المبرد ، تح: محمد عبد الخالق عضيمة421:4. واللمع101. وشرح المفصل138:8. وأوضح المسالك ، ابن هشام ، تح: عبدالمتعال الصعيدي 54.

النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ) دلالة على أنه لا يتصرف ولا يوصي ولا يوجه إلا بعلم ودراية وحكمة وصواب وهو أمر لا يحق لأحد رده أو الارتياب فيه ، وأن العلم الذي تفضل به الله تعالى قد حُجب عن أكثر الناس ممن لا يرون ما يرى يعقوب (a). وفي هذا النص ردٌّ قاطع على كل من آخذ يعقوب (a) أو تجرأ عليه بالمؤاخذة فيما يخص علاقته بأبنائه.

25- **كلامه تعالى عن وصول الإخوة إلى حضرة يوسف (a) والتقائه أخاه (بنيامين) وإيوائه إياه:**

قال تعالى: (وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَاْ أَخُوكَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُون) [69].

وهنا تحقق ليوسف (a) ما أراده من إخوته الذين لم يتعرفوا عليه بعدُ. فدخلوا عليه وهم يصطحبون معهم أخاهم (بنيامين) ، فقربه منه وآواه إليه. وقد ذكر الله تعالى هذا الموقف بعبارة مؤكدة بتقديم الجار والمجرور (إِلَيْهِ) على المفعول به (أَخَاهُ) دلالة على شدة شوق يوسف (a) إلى أخيه ، وأنه إنما اشترط على إخوته إحضاره معهم ليكون الهدف من ذلك انتهاء (بنيامين) إليه واحتضانه. ولعل الغاية الرئيسة من ذلك هي حفظ (بنيامين) ورعايته وإنقاذه من كيد هؤلاء الإخوة خشية تفكيرهم بأمر يحاولون به القضاء عليه والخلاص منه كما فعلوا به هو نفسه من قبل. ثم عرَّف له يوسف (a) عن نفسه وأخبره بأنه هو أخوه يوسف لتطمئن نفسه ويطيبَ خاطره إذ إنه ليس بحال الاطمئنان من هذا الاصطحاب. فلو كان الأمر كذلك لما طلب منهم أبوهم ذلك الموثق الذي وكَّل الله تعالى عليه. وقد جاءت عبارة يوسف (a) مؤكدة بمؤكدين هما: (إنَّ) وتكرير ضمير المتكلم (أنا) مؤكِّدًا لـ(ياء) المتكلم في قوله تعالى: (إِنِّي أَنَاْ أَخُوكَ) لبعث الدعة والاطمئنان وطيب النفس عند (بنيامين) ولتخليصه من الهم والغم الذي لحقه من إخوته بعامة ، ولإزالة الرهبة التي هزت استقراره نتيجة هذه السفرة بخاصة بدليل طمأنته بقوله لأخيه في ضوء البيان القرآني: (فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُون).

26- **كلامه تعالى عن تدبير يوسف (a) أمر الصواع وفقدانه وما نُتِج عن ذلك من أحداث مع إخوته ، وأخذه أخاه (بنيامين) بحجة مشروعة ، وما انطوت عليه هذه الأحداث من حكم وأهداف متوخاة:**

قال تعالى: (فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ، قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ، قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاء بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَاْ بِهِ زَعِيمٌ ، قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ، قَالُواْ فَمَا جَزَآؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ، قَالُواْ جَزَآؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ، فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاء أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاء أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّن نَّشَاء وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ، قَالُواْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ، قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ، قَالَ مَعَاذَ اللّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّآ إِذًا لَّظَالِمُون) [70-79] انتظم هذا الحديثُ المهمُّ في قصة يوسف (a) واحدًا وعشرين مؤكِّدًا ، فنصوصه – إذًا – مشحونة بما يثبت دلالات النظم ويرسخها ويُصغي الفكْرَ إلى أهميتها وخطورتها ومدى أثرها. ولعل الدافعَ الرئيس في ذلك هو عزم يوسف (a) على إبقاء أخيه (بنيامين) عنده بطريق مشروعة لا حجةَ لأحدٍ فيها عليه ، ووضعُ إخوته في حال لا يُحسدون عليها ليستذكروا فعلتَهم به من قبلُ وليربطوا ذلك العهد الذي قطعوه لأبيهم على أنفسهم من حفظه ونصحه ورعايته إنْ أرسله معهم بهذا الموثق الذي آتوه أباهم بأن يحفظوا أخاهم ويزدادوا بسببه كيل بعير ليميروا أهلهم ويكسبوا غنيمة لصالحهم ، وليبيِّن يوسف لأبيه (K) بصورة غير مباشرة أن سماحته وطيب صنيعه بأبنائه وهم مخالفون له – غالبًا - قد آتى أُكُلَه وكان جزاؤه خيرًا له ولأبنائه أيضًا. بدأ هذا الحدث بأمر تجهيز إخوته بجهازهم وجعْلِ صواع الملك في رحل أخيه (بنيامين) ، ثم أُعلِنَ بشكلٍ استنفاريٍّ مدوٍّ (أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ) بعبارة اكتنفت مؤكدين هما (إنَّ) و (اللام) لإزالة أي شكٍّ لدى السامعين في هذا الخبر ولتوثيق الحدث وتصديقه فقد سُرق صواع الملك تزامنًا مع وجود قافلة الإخوة في مكان الحدث. فهو ليس بالحدث البسيط الذي يمكن إهماله وتجاهله. فلما استفهم الإخوة – شأنهم شأن غيرهم – عن الأمر قيل لهم في ضوء البيان القرآني: (نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاء بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ) فجاء إعلان الخبر ثم تلاه ذكر جائزة من يرشد إليه بعبارة مؤكدة بتقديم ما حقه التأخير ، أي تقديم الخبر (لِمَن جَاء بِهِ) على المبتدأ (حِمْلُ بَعِيرٍ) إذ قُدِّم الأمر الأهم الذي يشكل الغاية من هذه الجائزة ، وهو إحضار الصواع والمجيء به فقُدِّم هذا الخبر لأنه الغاية وما لأجله اضطربت الأوضاع واستُنفرت القوى ، فعرضت ((جائزة قيمة لمن يأتي به ... من المؤونة والطعام ، وهي غاية كل فرد في مصر – آنذاك –

لشدة القحط وألم الجدْب والفاقة حتى صارت هذه الجائزة باعثًا ومحفزًا كبيرًا للبحث عن هذا الصواع))[32](33).
وقد منحهم يوسف (a) موثقًا لا ريب فيه من تنفيذ هذا العهد ، أي إعطائهم الجائزة وهي حمل بعير من المؤونة والطعام إن أرشدوا إلى الصواع ، بقوله في ضوء النص القرآني: (وَأَنَاْ بِهِ زَعِيمٌ) وهي عبارة مؤكدة بتقديم الجار والمجرور (بِهِ) على الخبر (زَعِيمٌ) إرادة لترسيخ صدق هذا الموثق ، وللفت نظرهم: أنكم أعطيتم موثقين ولم تفوا بهما ، فلا تحاسبوا غيركم على موثقه ، إذ إنكم لستم بأصدق منه.ثم جاء رد الإخوة على يوسف (a) ومن معه بقولهم المشحون بالتوكيد في ضوء البيان القرآني: (تَاللّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ) ، فاستعملوا لتوكيد قولهم هذا القسمَ (تَاللّهِ) وما يتلقى به من توكيد وهو (لَقَدْ) التي تضم مؤكدين متصلين. وهم إنما استعملوا هذه المؤكدات الثلاثة في ردهم لأنهم صادقون ويريدون تغيير رفض السامعين لكلامهم ودفاعهم ومحْوَ أي ريبٍ في صدق عبارتهم ، بل إنهم لثقتهم بكلامهم شحنوه بما يزيد صدقه ، فخوطبوا خطابَ واثق من أنهم سيقعون في عقاب هذا الفعل بأن قيل لهم: (فَمَا جَزَآؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ) وهي عبارة شرطية حصل فيها تقديم للجواب (فَمَا جَزَآؤُهُ) على أداة الشرط وجملته (إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ) لأهمية معرفة الجزاء وتخويف المخاطبين به وتهويل الأمر عليهم علَّهم يعترفوا فتخفف عنهم العقوبة بعد أن أحكم الأمر وكأن الصواع مسروق فعلاً ولا يُعرف سارقه ولا مكانه. فرد الإخوة ردَّ المسلِّم للأمر الواثق بنفسه المتيقن من صدقه وخلاصه وعدم شموله بالجزاء بقولهم الإرشادي في ضوء البيان القرآني: (جَزآؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ) أي أن العقاب يقع على من وُجد في رحله. وقد خُتمت هذه الآية بعبارة مؤكدة هي قوله تعالى: (كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ) إذ قُدِّم فيها الجار والمجرور (كَذَلِكَ) على الجملة الفعلية (نَجْزِي الظَّالِمِينَ) إشارة إلى مكر الله تعالى بإخوة يوسف (a) وجعلهم يقعون – بما قدموا لأنفسهم – في مشكلة لا تصب عواقبها في صالحهم.

ثم تنتقل الأحداث إلى عملية البحث عن الصواع في أوعية الإخوة إزالة لأدنى شك في أن القضية مدبرة - إذ إن يوسف (a) لو بدأ بوعاء أخيه واستخرج منه الصواع وأوقع العقاب على (بنيامين) باحتجازه عنده لدفع هذا الفعلُ الإخوة إلى الارتياب بأن يقولوا: هذا أمر مدبر ! فكيف عُثِر فورًا وبسهولة ودراية على هذا المفقود المهم ؟! - ولإطالة البحث لإشعار الحاضرين أو المتهمين بأهمية الأمر وخطورة وقعه. ثم وصل البحث إلى رحل أخيه (بنيامين) فاستخرجه منه ، وهذا من تدبير الله تعالى ليوسف (a) لقوله تعالى: (كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ) وهي عبارة مؤكدة بتقديم الجار والمجرور (كَذَلِكَ) على الجملة الفعلية (كِدْنَا لِيُوسُفَ) دلالة على أن كل ما يجري ليوسف (a) من أحداث ومواقف إنما كان بتدبير الله تعالى ، لتسهيل كل شيء لأجله ، ولتهيئة الأمر ليعقوب وعائلته فيما يستقبل كي يَقْدُمُوا مصرَ ويقروا فيها منعمين مجتمعين متآلفين ، فقال تعالى مبينًا هذا التدبير وهذه العناية: (مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ) بعبارة مؤكدة بـ(ما) و (إلا) إشارة إلى حصر علة أخذ (بنيامين) في دين الملك بمشيئة الله تعالى ، لا بشيء آخر أو بمخلوق معين. وقد تبع هذه العنايةَ الإلهية المؤكدة العبارةُ التي تلتها لتوثيق هذه العناية وهي قوله تعالى: (نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّن نَّشَاء) وهي مؤكدة بتقديم المفعول الثاني (دَرَجَاتٍ) على المفعول الأول (مِّن) لأهمية ذكر المفعول الثاني هنا ، فما يُرفع هو درجة العبد الصالح نفسها. وما يفاضل به بين أولياء الله تعالى إنما هو مدى التقوى والصلاح والالتزام الذي يعلي من شأن العبد ومرتبته. ولذلك قُدِّم المهم والمناسب للفعل (نَرْفَعُ) ، والغاية هنا هي رفع شأن يوسف (a) وسمو مكانته ورفعة أمره. وفي هذا النص الكريم وهذا التقديم التوكيدي حافز ودرس أخلاقي كبير يدعونا إلى الالتزام بشكل أكبر وأفضل كي نجازَى بما هو أسمى وأنمى. وهذا كله إنما يجري بعلم الله تعالى ، وليس لأحد مغمز أو ملحظ فيه قال تعالى: (وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ) وهي عبارة مؤكدة بتقديم الخبر (فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ) على المبتدأ (عَلِيمٌ) إشارة إلى رد أي ظن أو تفكير من أن آراء ذوي العلم – مهما بلغوا من درجات – تلتزم وتعتمد وتفضل مقابل علم الله تعالى وتدبيره.

فلما سلَّم الإخوة إلى الأمر الواقع وأيقنوا أن الصواع كان في وعاء أخيهم (بنيامين) صبُّوا جام غضبهم ووجهوا سهام لومهم وتأنيبهم على أخيهم (بنيامين) متخلين عنه ومتبرئين من فعله هذا – كما تراءى لهم – بقولهم في ضوء البيان القرآني: (إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ) مؤكدين ردهم الاعتذاري التبرئي هذا بـ(قد) لحمل أفكار السامعين إلى حجب التهمة والإدانة عنهم ، محققين وقوع السرقة من أخ له من أمه وهم يريدون يوسف (a) نفسه ، لا واحدًا منهم لأنهم كلهم حاضرون وهم إخوة من أم وأب ولم يُتهم أحد منهم بسرقة معينة قبلاً. ليبينوا ليوسف (a) - وهم لا يعرفونه بعد – وحاشيته أنهم صالحون متقون مؤتَمنون لا يصدر عنهم مثل هذا الفعل الدنيء. إلا أن

[32](32) ينظر: التبيان في تفسير القرآن6:166. والبداية والنهاية ، ابن كثير ، تح: علي شيري 1:244. والدر المنثور ، السيوطي4:26. ومجمع البحرين ، الشيخ الطريحي1:262. وبحار الأنوار68:114. ونور البراهين ، السيد نعمة الله الجزائري2:360.

يوسف (a) - وهو المقصود بقولهم: (أَخٌ) أي أنه فعل مثل هذه الفعلة فيما مضى ، ولا غرابة من أن يفعل (بنيامين) الأمر نفسه هنا لأنهما أخوان شقيقان يتشابهان بالأفعال غير المقبولة – قد تمالك نفسه وأغضى عن الرد على تهمتهم الملفقة واحتفظ بذلك لنفسه ، وقد قال تعالى عن هذا الموقف: (فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ) صراحةً ، وهي عبارة مؤكدة بتقديم المفعول به (الهاء) المكنى بها عن التهمة التي لفقها إخوته عليه على الفاعل (يُوسُفُ) دلالة على سرعة تمالك النفس ورباطة الجأش وتحمل الموقف بمدى التمكن من كتمان الرد وحفظه في النفس. وقد ردَّ عليهم يوسف (a) بعبارة تفصح عن نظرته إليهم ، ورد افترائهم عليهم ، وبيان تصوره اليقيني عنهم ، وكأنه يخبرهم بأنه يعرفهم حق المعرفة إذ قال لهم في ضوء البيان القرآني: (أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ).فلما اتضحت لهم معالم العقوبة وإيقاع الجزاء - الذي سلَّموا له من قبل – طلبوا من يوسف (a) - بلسان المتضرع الخائف الضعيف – أن يترك (بنيامين) ويأخذ أحدهم مكانه بقولهم في ضوء النص القرآني: (إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ) مؤكدين عبارتهم بـ(إنَّ) وتقديم الخبر وهو الجار والمجرور (لَهُ) على اسم (إنَّ) وهو (أَبًا) لتحقيق وقوع الرأفة بهم والإذعان لمطلبهم من قبل يوسف (a) ، وهم قد أخبروه - أصلاً – بما اطمأن به وارتاحت له نفسه وسعد لسماعه وهو أن يعقوب (a) لا يزال على قيد الحياة ، وأنهم يخشون إخباره بما حل لـ(بنيامين) لأنه لن يصدقهم كما أنه لم يصدق كذبهم بشأن اختفاء يوسف (a). وختموا عبارتهم هذه بالاعتراف الصريح برؤيتهم عنه – دونما علمهم بشخصه - وهو يمتلك زمام الأمور وبيده الحل والعقد ، إرادة لاستمالة وده وعطفه وجعله يلبي ما طلبوه منه إذ قالوا في ضوء البيان القرآني: (إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) مؤكدين قولهم هذا بـ(إنَّ) توثيقًا لرؤيتهم وتشديدًا وتعضيدًا لها لأنه فعلاً كذلك ولا ريب في القول بثبات إحسانه أبدًا. عندها جاءهم الرد الحاسم الذي ينبههم إلى خطأ اقتراحهم وذهابهم في تيه الحرام لأن إنزال العقاب في البريء حفاظًا على المتهم لأي سبب كان أمر لا تقره الشرائع ولا يرضاه الله تعالى ولا الأنبياء والأولياء ، فقال لهم في ضوء النص القرآني: (مَعَاذَ اللّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ) مؤكدًا ردَّه هذا بوساطة القصر بالنفي المتحصل من (مَعَاذَ اللّهِ) - التي يراد بها نفي قبول اقتراحهم بالتحصن بهداية الله تعالى وتحصينه واللجأ إليه – و(إلا) دلالةً على رد ما يُظَنُّ أنه سديد ومسوَّغ ، وتثبيتًا لما هو واجب الإيقاع والتنفيذ. فالعقوبة لا تقع إلا على المدان بالتهمة. وقد خَتَم ردَّه التوجيهيَّ الحاسم هذا بقوله في ضوء البيان القرآني: (إِنَّـا إِذًا لَّظَالِمُون) لو فعلنا ما أردتموه من باطل. وهو قول مؤكد بـ(إنَّ) ، و(إذًا) المزيدة للفت النظر والمفاجأة وطلب حسن الإصغاء والامتثال لما مر ، و(اللام) ترسيخًا وتوثيقًا لفساد الرأي المقترح المطلوب إيقاعه.

27- **كلامه تعالى عن موقف الإخوة بعد يأسهم من إقناع يوسف (a) لأخذ أحدهم مكان (بنيامين) ، وموقف الأخ الأكبر من هذا الحدث المحرج مع أبيهم وتوجيهه لهم:** قال تعالى: (فَلَمَّا اسْتَيْأَسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُواْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىَ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِين ، ارْجِعُواْ إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ، وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُون)[80].

هذا استذكار وتأنيب جرى بين الإخوة أنفسهم بعد أن يئسوا من تحقيق ما اقترحوا ، فانفردوا وحدهم متناجين ومتباحثين حتى بيَّن كبيرُهم خطورةَ الأمر وجسامة الموقف ، إذ إنهم أعطَوا أباهم يعقوب (a) موثقًا من الله تعالى أن يحفظوا أخاهم ولا يفرطوا فيه ولا في رعايته وحمايته ، وأن الواجب عليهم عدم تكرير ما وقع منهم ليوسف (a) ، فلهم سابقةٌ خطيرة مماثلة وهي تفريطهم بيوسف (a) من قبل ، وقد أعطَوا – آنذاك – العهود والمواثيق على حفظه والنصح له وحمايته وإعادته إلى أبيه ، ولم يرعَوا ذلك بل عمدوا قاصدين إلى نفيه وإبعاده وتركه يلقى مصيره المجهول عندما ألقوه في غيابة الجب. وهذا تذكير قاسٍ استدعاه الحال واستصحبه. فكيف بهم اليوم وقد أعطَوا أباهم موثقًا من الله تعالى أن يحفظوا أخاهم ويعيدوه سالمًا إلى أبيه وقد أُخذ منهم عنوةً وليس لهم في ذلك يد. وهذا موقف استدعى مجيءَ نظم مشحون بمؤكدات هي: (أَنَّ) و(قد) وتقديم الجار والمجرور (عَلَيْكُم) على المفعول به (مَّوْثِقًا) في تأنيب كبيرهم الذي ورد في قوله تعالى: (أَلَمْ تَعْلَمُواْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللّهِ) لجعلهم يثبتون ويقرون بأنفسهم على أنفسهم بأنهم يعلمون – بما لا يقبل ردًّا ولا يبقي شكًّا – أنهم مدينون لأبيهم بعهد موثق لا معدى لهم من الوفاء به ، وبتقديم الخبر (مِن قَبْلُ) على المبتدأ (مَا فَرَّطتُمْ...) في قوله تعالى: (وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ) للفت النظر إلى أمر مهم جدًّا فعلوه فيما مضى بشقيق (بنيامين) وسابقه الذي كيد له. وقد ختم الأخ الأكبر حديثه هذا بالبقاء في مكانه وعدم الرجوع معهم إلى أبيهم لشدة حرجه وخجله من أبيه بعد أن سُقط في أيديهم لما مر بهم مما جعل منهم مفرطين في إخوتهم وغير أوفياء بالعهود ، واشترط لعودته معهم حصوله على إذنٍ من

أبيه وقد قصد بهذا الإذن نفسه من دون إخوته مؤكدًا عبارته هذه بتقديم الجار والمجرور (لِي) على الفاعل (أَبِي) لبيان تأثره وخجله من هذه الفعلة – وإن لم تكن من تدبيرهم – بنظم يشي بأن باقي الإخوة لم يتأثروا من هذا الحدث الجديد وما سينتج عنه من موقف مع أبيهم بمستوى تأثر الأخ الأكبر الذي بان بقوله تعالى على لسانه: (فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىَ يَأْذَنَ لِي أَبِي) إشارة إلى مدى سعادته برضا أبيه عنه من جهة ، فإن لم يتحقق له ذلك فإنَّ له فرجًا أكبر وأشمل رجاه بقوله في ضوء البيان القرآني: (أَوْ يَحْكُمَ اللّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِين).ثم وجه الأخ الأكبر – بعد أن قرر البقاء في مكانه وعدم الذهاب معهم إلى ديار أبيهم (a) - إخوته بالرجوع إلى أبيهم وإخباره بما حصل دونما تردد أو تزييف ليقولوا له (إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ) منتقيًا لهم ردًّا يكونون فيه مؤكدين عبارة الحدث الرئيس بـ(إنَّ) وهي قولهم في ضوء البيان القرآني: (إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ) وهو رد يشي بإجماعهم على التحلي بالقوة والثبات والبوح بما هو مستغرَبٌ وخطير جدًّا كي يمنعوه أول الأمر من أي سؤال عن سبب عدم رجوع (بنيامين) معهم ، فالسارق يبقى محجوزًا عند أصحاب الحاجة جزاءً على فعلته. ثم أكدوا حديثهم وما أخبروا به بمؤكدَين هما أسلوب القصر في قوله تعالى على لسانهم: (وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا) لحجب أي رفض من أبيهم على ادعائهم هذا وجعله يسلم بأنه الواقع ولا واقع غيره ، وتقديم الجار والمجرور (لِلْغَيْبِ) على خبر (كان) في قوله تعالى على لسانهم: (وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ) دلالة على قصور قدراتهم أمام الغيب وما كان ينتظرهم قبل اصطحابهم أخيهم وتثبيتًا لبراءتهم من أسباب ما حصل لـ(بنيامين) بعبارة مفتاحها النفي ووسيلتها توكيد هذا النفي بما لا يدع مجالاً للشك ولا منفذًا للإنكار فقالوا.وقد استدلوا على صدق ادعائهم وسلامة قولهم بالحال التي عليها القرية التي كانوا فيها ، وبهيأة العير التي أقبلوا فيها وحملها إذ قالوا في ضوء النص القرآني: (وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا) فحال تلك القرية لو استنطقتها يجيبك بصحة قولنا وأن لا يدَ لنا فيما جرى. وطلبوا منه - لإلقاء الحجة عليه وكسبهم عفوه بعد قناعته بكلامهم وتصديقه لهم – ((التحريَ والاطلاعَ شخصيًّا ...على أحوال القرية التي [أتوا منها] وأنها تموج بحركة غير طبيعية بسبب دأب أهلها وهم يبحثون عن صواع الملك الذي فقد أو سرق...فلما وجد هذا الصواع في رحل [بنيامين] حجزه [المتصرفُ بالأمر] وهو يوسف (a) عنده... وهي وسيلة – بمشيئة إلهية- قرب بها النبي يوسف (a) أخاه منه ، وأبلغ به – بصورة غير مباشرة – أباه بوجوده وعلو شأنه))[33] **(34)**. فقد كان حال القرية هذا. أما حال بضاعتهم فقد جاءت مجهزة لهم دونما بخسٍ لها. ولهذا قالوا في ختام إقناعهم أباهم في ضوء النص القرآني: (وَإِنَّا لَصَادِقُون).

وعن هذا النص الاستدلالي ودلالتِه قال ابنُ جني وهو يميز بين الحقيقة والمجاز: ((والحقيقةُ ما أُقِرَّ في الاستعمال على أصل وضعه في اللغة. والمجازُ: ما كان بضدِّ ذلك. وإنما يقع المجاز ويُعدَل إليه عن الحقيقة لمعانٍ ثلاثة وهي: الاتساع ، والتوكيد ، والتشبيه. فإن عَدِمَ هذه الأوصاف كانت الحقيقةُ البتة... وقوله سبحانه: (وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا) [يوسف/82] فيه المعاني الثلاثة. أما الاتساع فلأنه استعمل لفظ السؤال مع ما لا يصِحُّ في الحقيقة سؤالُه ... وأما التشبيه فلأنها شُبِّهت بمن يصِحُّ سؤالُه لما كان بها ومؤلِفًا لها ، وأما التوكيد فلأنه في ظاهر اللفظ إحالة بالسؤال على من ليس من عادته الإجابةُ فكأنهم تضمَّنوا لأبيهم (a) أنه إن سأل الجمادات والجبال أنبأته بصحة قولهم. وهذا تناهٍ في تصحيح الخبر ، أي: لو سألتها لأنطقها الله بصدقنا. فكيف لو سألت مَنْ مِنْ عادته الجواب))[34] **(35)**.بهذا التوجيه قال السيد جعفر الحسيني إذ رأى أن: ((هذا التعبير [أي: (واسأل القرية)] يشير إلى قوة الاحتجاج بتلك القرية ، لكأن القرية كلَّها ستجيب عن السؤال ، وسيتحدث أهلها وتشهد بيوتها وشوارعها ، وتنطق أرضها ويؤمن هواؤها ... فإذا القرية كلُّها تُسألُ ، وإذا القرية كلُّها تجيب. فهو ... أسلوب بلاغي رائع في لوحة مصورة))[35] **(36)**. وزيادة على ما تضمنه قولهم السابق من توكيد فإنهم ختموا دعوتهم التيقنية لأبيهم بعبارتهم المؤكدة بـ(إنَّ) و (اللام) بقوة (وَإِنَّا لَصَادِقُون) ترسيخًا ودعمًا وتعضيدًا لدفاعهم بعد إخبارهم أباهم بما حصل ودعوته للاستدلال بما هو يقيني واضح.

28- كلامه تعالى عن إنكار يعقوب (a) خبر سرقة ابنه (بنيامين) وإلقائه اللوم على أبنائه العائدين ، ورجائه الله تعالى أن يرجع إليه أبناءه الثلاثة ، وبيان شوقه المتوقد ليوسف (a) ولجأهِ إلى الله تعالى:

---

[33](33) دلالة الاكتفاء في الجملة القرآنية ، د.علي عبدالفتاح محيي ، أطروحة دكتوراه (مخطوطة) / جامعة بغداد/ كلية التربية (ابن رشد) 63.

[34](34) دلالة الاكتفاء63.

[35](35) الخصائص 2: 442 و447. وينظر: أسرار البلاغة ، عبدالقاهر الجرجاني ، تح: هـ. ريتر 367. والمزهر في علوم اللغة وأنواعها ، جلال الدين السيوطي ، تح: محمد أحمد جاد المولى وزميليه1:336. والبلاغة والأسلوبية ، د. محمد عبد المطلب البكاء 235-236.

قال تعالى: (قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ، وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ، قَالُواْ تَاللّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ، قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُون) [83-86] لم يكن يعقوب (a) منفكًا عن ذكر يوسف (a) وكيد إخوته له ، فلا تزال حادثة إبعاده عنه تُلقي بهمومها وآلامها وأشواقها عليه. لذا رد عليهم – بعد أن أخبروه بما حلَّ لـ(بنيامين) – بقوله المؤكد في ضوء البيان القرآني: (بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ) وقد قُدِّم في الجار والمجرور (لَكُمْ) على الفاعل (أَنفُسُكُمْ) إشارة إلى تزيين أنفسهم وتسهيلها لهم فعلاً ما لا لغيرهم. فهم أصحاب هذه الأفكار ، وإليهم منتهى نتائجها ، ولهم تزيينها وتهوينها. ثم سأل الله تعالى بعبارة الراجي رحمةَ ربه الموقنِ بسلامة من فقدهم فقال في ضوء النص القرآني: (عَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا) وختم دعاءه هذا بعبارة مؤكدة في قوله تعالى: (إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) فهي مؤكدة بمؤكدين هما: (إنَّ) وضمير الفصل (هو)[36] **37)** إقرارًا منه بإيكال الأمر إلى الله تعالى ، واعتقادًا منه ثم إعلامًا لغيره بأن ما جرى عليه وعلى ولديه إنما هو بعلم الله تعالى وعن حكمته جل وعلا. وتجدر الإشارة إلى أن في عبارته هذه ضربًا من الاطمئنان الذي يؤكده عدم اكتراثه بما ادعوه لقوله تعالى: (وَتَوَلَّى عَنْهُمْ) وشدة ألمه من المصير المجهول الذي وصل إليه (بنيامين) بعد يوسف (a) الذي تتجدد ذكراه عند أبيه دونما انقطاع وقد هيَّج مواجعَ فقدِه فقدُ (بنيامين) فذكر رب العزة أنه (قَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ) وهو أسف توجُّعٍ يصحبه دمعٌ غزيرٌ أتى على منابعه فبين لنا الله تعالى أنه قد (ابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ) لشدة ألم الفراق وجهْل المصير.

لم يكن الأمر هينًا على يعقوب (a) فالخطب قد ازداد جسامة بعد أن أُبعد عنه ابنه (بنيامين) عقب يوسف (a) ، وأكمل الموقف ألمًا بقاء الأخ الأكبر بعيدًا عن ديار أبيه أيضًا. فهاج به الحزن على يوسف (a) - الذي حباه فيما مضى بكل وسائل الرعاية والتقريب والتهيئة – وهو في حال الأسف وشدة الألم ، وهي حال لم يرضها له أبناؤه ولا من يحيط به فقالوا له - بعبارة مؤكدة في ضوء البيان القرآني- : (تَاللّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ) مبتدئين بالقسم (تَاللّهِ) الذي أكدوا به رفض أمرٍ لا يروق لهم وهو ذِكْره ابنَه يوسف (a) ، إذ إنها عبارة مُنكِرٍ مستغربٍ متعجبٍ سأمَ هذا التكرير وطول الحزن والذِّكْر ، فجاء توكيدها مناسبًا لهذه الأحوال الإنكارية الاستغرابيةً. ولا أرى وجهًا لقول من ذهب إلى أن ثمة (لا) محذوفةً قبل الفعل (تَفْتَأُ) فقدَّر الكلام – وهو كلام الله تعالى على لسان الإخوة واللائمين – بـ(تالله لا تفتأ تذكر يوسف). لأن هذا الزعم إنما جاء بحجة أن القسم يُتلقى في الإيجاب بـ(اللام) أو (إن) أو (إن) المخففة ، وفي النفي بـ(ما) أو (لا) أو (إن) النافية[37] **38)** فلو ((كان مثبتا لوجب قرنه بنون التوكيد فحذف حرف النفي هنا))[38] **39)**.إنَّ النص القرآني هذا في غاية الدقة الدلالية والنظم القصدي شأنه شأن نصوص القرآن كله ، فالمتجلي من هذا النظم (تَاللّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ) بيان استمرارية يعقوب (a) على ذكْر يوسف وأن هذه الحال قد صارت ديدنًا معروفًا وطبعًا ملازمًا له ، ولشدة استغراب وَلَد يعقوب (a) من حال أبيهم المستمرة هذه أكدوا دهشتهم وإنكارهم بالقسم (تالله) ، فهذا التعبير القرآني الدقيق يكتنف دلالتين رئيستين هما:

1- شدة استغراب أبناء يعقوب (a) وإنكارهم حال أبيهم ذات الحزن المتجدد على يوسف (a) ، والإلحاح على أبنائه لتقصي أخباره ، بشكل قوي مؤكد يحمل التعجب والدهشة المشربين بالرفض.

2- بيان الحال المستمرة التي لا يعتورها تردد أو سأم في ذكْر يوسف (a) والأسف على فراقه وشدة الألم المتجددة من ذلكولو أنَّ (لا) المزعومة تصح هنا – تقديرًا كما يُظن – لما كانت نافية بل ناهيةً في قول المقدرين: (تالله لا تفتأ تذكر يوسف) أي: تالله كُفَّ عن ذكره. ولم يذكر أولئك المقدرون أنها ناهية بل نافية. وإذا كانت ناهية للزمت (نون التوكيد الثقيلة) ، أي (تالله لا تفتأنَّ تذكر يوسف). والحقيقة أننا في لهجتنا الدارجة نستعمل مثل هذا التعبير المقصود دلاليًا فنقول لمن يُكثر من اغتياب الناس: (بالله عليك تبقى تغتابُ الناسَ) ذمًّا وإنكارًا لهذا الفعل الدنيء وتعجبًا من استمرارية المخاطَب بهذه الحال وتنبيهًا له على وجوب تركه والنأي بنفسه عن هذا الفعل المرغوب عنه ، وهو نهيٌ لا نفيٌ. وهو في البيان أبلغ من قولنا: (بالله عليك لا تبقَ تغتابُ الناسَ).

وقد ورد التوكيد هنا بقسم هو الأندر مقارنة بالقسمين المطردَين في الاستعمال (والله) و (بالله) ، وهو استعمال ناسب غرابة حال يعقوب (a) هذه عند وَلَدِه واستنكار ديمومتها ، قال الزركشيُّ (عليه السلام)ـن هذا النص الكريم: ((فإنـه سبحانه أتى بأغرب ألفاظ القسم بالنسبـة إلى أخواتـها. فإن (والله) و (بالله) أكثـر استعمالا وأعرف من (تالله)

---

[36](36) أساليب البيان في القرآن 438-439.

[37](37) ينظر في دلالته التوكيدَ: الكتاب1:394. وشرح المفصل3:111. وشرح الكافية2:24.

[38](38) ينظر: الكتاب1:454. وإعراب ثلاثين سورة 41. وأسرار العربية ، أبو البركات الأنباري، تح: محمد بهجة البيطار 277. وتسهيل الفوائد 152. والأساليب الإنشائية150.

، لمَّا كان الفعل الذي جاور القسم أغرب الصيغ التي في بابه فإن (كان) وأخواتها أكثر استعمالا من (تفتأ) وأعرف عند العامة ،ولذلك أتى بعدها بأغرب ألفاظ الهلاك.وهي لفظة (حرض)))[39]**(40)**.

أما رد يعقوب **(a)** فقد جاء مؤكدًا في ضوء البيان القرآني: (إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُون). إذ أكد بـ(إِنَّمَا) التي تأتي لمعنى لغوي محدد لا يُفهم إلا بها ، فقد ((تغيرت دلالتها على التوكيد من كونه توكيدًا عاديًّا إلى كونه توكيدًا قاصرًا أو حاصرًا. أو بعبارة أوضح: من كونه توكيدًا مخففا إلى كونه توكيدًا مشددًا))[40]**(41)**. وقد اتفق استعمالها ودلالة النص الذي وردت فيه ، إذ ناسب رد يعقوب **(a)** إنكار من لم يرق له تذكر يوسف **(a)** وذكره واسترجاع أحاديثه والشوق إلى لقياه والإصرار على أنه حي يرزق. فصرف عنهم ما يصدر عنه وقلل من شأنهم فيه وألجأ أمره إلى الله تعالى الذي إليه مصير كل شيء ، وبعلمه يجري كل شيء ، وهو المنان على أنبيائه بالعلم والوحي وفضل الصبر والتصبر. إنَّ الأداة (إنما) تؤكد خبرًا ((لا يجهله المخاطَب ولا يدفع صحته ، أو لِما ينزل هذه المنزلة))[41]**(42)**.

29- **كلامه تعالى عن طلب يعقوب (a) من أبنائه التحري عن يوسف (a) ونهيهم وتحذيرهم من اليأس من روح الله تعالى:**

قال تعالى: (يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُون) [87].

لم يكن إيمان يعقوب **(a)** – مثلما مر- في قوله تعالى: (عَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) [83] وفي قوله تعالى: (وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُون) [86] بالأمر القابل للتغيير و بالأمر الطارئ المقتضي التلاشي ، بل هو أمر نابع من اعتقاد يقيني ثابت بأن ابنَيه حيَّان ولم يصبهما أذى قاتل. ولهذا وجَّه أبناءه وحثَّهم على الذهاب والتحسس من يوسف وأخيه وتقصي أحوالهما والإمساك بما يوصل إليهما نابذًا اليأس عن نفسه وعنهم بعلبارة النهي والتحذير المؤكد في قوله تعالى: (وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُون) إذ شُحِنت بالمؤكدات بـ(إنَّ) وتقديم الجار والمجرور (مِن رَّوْحِ اللّهِ) على الفاعل وصفته (الْقَوْمُ الْكَافِرُون) والحصر بالنفي و(إلاَّ) ترسيخًا لهذا الاعتقاد وتصغيرًا وتبكيتًا لمن ييأس من الفرج وهو في الشدة ، ودلالة على حصر اليأس من ذلك في من كفر ولم يمسه إيمان ، وتحفيزًا للمخاطبين والسامعين للاتكال المطلق على رحمة الله تعالى ولطفه ورَوحِه وكرمه.

30- **كلامه تعالى عن وصول الإخوة إلى حضرة العزيز وإخباره بمدى الضرر الذي لحقهم وعائلهم نتيجة الظروف الاقتصادية القاهرة ، وطلبهم الكيل الوافي. وتأنيبه إياهم لجهلهم وما فعلوه بيوسف وأخيه ، وتعرفهم إليه أخيرًا واعترافهم بخطيئتهم ودعائه لهم وطلبه تبشير أبيه (a) :**

قال تعالى : (فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ اللّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ، قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ، قَالُواْ أَإِنَّكَ لأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَـذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ، قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ، قَالَ لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ، اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَـذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِين) [88-93].

وهنا نفذ الأبناء طلب أبيهم **(a)** ووصلوا إلى حضرة العزيز فالتمسوا منه أن يوفيَ لهم الكيل الذي يستحقونه - بناءً على إخباره لهم فيما مضى (أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَاْ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ) [59] - ويتصدق عليهم مفتتحين حوارهم معه بنقل حقيقةِ ما هم عليه. وقد أكدوا عبارتهم بتقديم المفعول به وهو ضمير المتكلمين (نَا) والمعطوف عليه (أَهْلَنَا) على الفاعل (الضُّرُّ) لأن ما وظَّفوا لأجله طاقاتهم وخُشِيَ عليه من عواقب الفاقة والجوع ونقص الثمرات هو النفس والعيال ، فقُدِّم ما هو مهم ومعتنى به ، وما يستدرُّ ويُستمال به عطف المخاطَب وكرمه ورأفته. ثم طلبوا منه ما يستحقونه بعبارة مؤكدة مخصصة إذ قالوا له في ضوء النص القرآني: (فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ) بتقديم الجار والمجرور (لَنَا) على المفعول به (الْكَيْلَ) إرادة للتخصيص وبيان شدة الضرر الذي لحق بهم. ثم ألقَوا على مسامع يوسف **(a)** عبارة تؤكد ثقتهم بما عنده واعتقادهم بحسن جزاء المحسنين وأرادوا أن يلين لهم ويميل بالعطف

---

[39](39) التحرير والتنوير ، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور 342:1.

[40](40) البرهان في علوم القرآن 378:3

[41](41) في النحو العربي: نقد وتوجيه ، د. مهدي المخزومي239.

واللطف عليهم كي يحصلوا على رادهم فقالوا له في ضوء البيان القرآني: (إِنَّ اللّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ) مؤكدين ذلك – في ضوء البيان القرآني - بـ(إنَّ) لما تضفيه من قوة وترسيخ لدلالة العبارة.

فلما أكملوا حديثهم ردَّ عليهم معاتبًا ومؤنبًا ومذكِّرًا لهم بفعلهم غير الحسن بأخويهم يوسف (a) و (بنيامين) مستعملاً عبارة هي في غاية الأدب والرقة وتخفيف وطأة الذنب والتأنيب عليهم بقوله في ضوء البيان القرآني: (إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ) إشارة إلى استقامتهم وذهاب الجهل عنهم في الوقت الحاضر كونهم صاروا على أعلى مديات الحرص بأهلهم من دون استثناء ، ودلالة على أنه خبير بتفاصيل ما فعلوه بأخويهم وهو أمر لا يعلمه بعد الله تعالى سواهم هم ومن حلَّ عليه الكيد أي يوسف (a) وأخيه (بنيامين).

وبعد أن سمعوا هذا الحديث المفحم لهم أيقنوا أنَّ هذا المتحدث إنما هو أخوهم يوسف (a) ، بل أصبحوا لا يرتابون طرفة عيين في ذلك – لِما سمعوه من ذكْرٍ لِما فعلوه بيوسف (a) وأخيه. فشحنوا إقرارهم الاستفهامي بمؤكدَين هما (إنَّ) و (اللام) في قولهم في ضوء النص القرآني: (أَإِنَّكَ لأَنتَ يُوسُفُ) دلالة على شدة دهشتهم المشربة بالبشرى والخجل والحرج في وقت واحد. ثم بسط لهم القول بكشف الأمر واعترف لهم بشخصه وبوجود أخيه معه ، وبين لهم أن الله تعالى قد حفظهما من كل سوء ومكروه وكيد ، وأنهما كانا بعنايته ولطفه ورحمته لأنهما يستحقان هذا الفيض الإلهي الذي لا يصيب أحدًا إلا وسما في الدنيا والآخرة. فجاءت عبارته مؤكدة بـ(قد) بعد كشفه عن نفسه وأخيه إذ قال في ضوء البيان القرآني: (أَنَاْ يُوسُفُ وَهَـذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَا) مرسخًا بقوة فكرة اللطف الإلهي - بهما وبمن يسير على نهج الحق - في أذهان إخوته. ثم أكد لهم أن الفيض الإلهي بالرحمة والحفظ والكرم إنما يتحصل من تقوى الله تعالى والصبر على الشدائد. فمن يتصف بالتقوى والصبر يكون حقه من جزاء الله تعالى محفوظًا له ليَنعمَ به. وقد دعاهم ضمنًا إلى الاتصاف بهاتين الصفتين الساميتين ، فقوَّى كلامه بـ(إنَّ) في موضعين محفزًا إياهم إلى ما يريد إذ قال في ضوء النص القرآني: (إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ). فلما سمعوا منه ما كدَّر نفوسهم وأضعف حجتهم وكشف فعلتهم لم يلبثوا حتى قدموا له الولاء المطلق واعترفوا بذنبهم وخطئهم وأقروا بإيثار الله تعالى إياه عليهم مستعملين – لذلك – القسم الذي لا يترك مجالاً للريب والتراجع بل يقطع بما سيق لتوكيده هو وما يلحقه مما يُجاب به القسم ، أي (لقد) ، فزخر اعترافهم بالمؤكدات لترسيخ ما يريدون وكسب صفْح من يُخاطبون ونيل رضاه فقالوا في ضوء البيان القرآني: (تَاللّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ).

وهنا يأتي عفوُ النبي يوسف (a) مُطمْئِنًا إخوته بعد أن علم بما صاروا عليه من ندم وما باحوا به من اعتراف بذنبهم دونما تدليس وتمويه فبشرهم بقوله في ضوء النص القرآني: (لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) فلا لومَ ولا تعيير ولا توبيخ منه عليهم لأنه لمس سيماء الصلاح عليهم وأيقن من تفانيهم من أجل أهلهم ، فدفعته ثقته الجديدة بإخوته إلى أن يأتمنهم – بعد أن كانوا خائنين للأمانة – على قميصه ويرسله معهم إلى أبيه إذ قال لهم في ضوء البيان القرآني: (اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَـذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِين). وهذا منعطفُ سعادةٍ ورخاءٍ جديد للعائلة لم يكن الإخوة ينتظرون تحققه يومًا ما

31- كلامه تعالى عن عودة أبناء يعقوب (a) بالبشارة الكبرى عن يوسف (a) وبيان موقف الإنكار ممن كان معه في مكانه:

قال تعالى: (وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ ، قَالُواْ تَاللّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ) [94-95].

بعد خروج قافلة أبناء يعقوب (a) من مصر إلى ديارهم أحس يعقوب (a) بتلك البشارة ، ولمس ذلك الدليل بوساطة حاسة الشم التي أيقن بها أن يوسف (a) لا يزال حيًّا وأنَّ أثرًا منه قد وصل إليه ، لذا قال (أَجِدُ) والوجدان لا يكون إلا لما هو متيقن منه بالحس أو اللمس. والعطر سريع النفاذ إلى حاسة الشم لسرعة انتشاره. فهو أسرع مما يُسمع ومما يُرى ومما يُذاق أو يُحسُّ باللمس. لذا لم يصله دليل قائم على الرؤية من بعيد أو قريب ، أو على السماع ، أو على التذوق ، أو على اللمس. فهذه كلها لا تتحقق فيها تلك السرعة الفائقة للعطر والعبق. هذا من جهة السرعة والوصول. أما من جهة التفاعل الجسدي والنفسي فإنَّ العطر يخالط - بوساطة حاسة الشم ومنافذها إلى الداخل – الأعصاب الحسية وينفذ إلى أدقها وأصغرها ويسرح بمن يؤثر فيه إلى عوالم الدعة والاسترخاء والاطمئنان والراحة ، يسرح فيها الفكر بمن له صلة بهذا العبق ، ويكون الأمر أشد تفاعلاً مع عبق الأعزة الذين نأوا بعيدًا إلى مكان مجهول ، ولا سيما يوسف (a) إذ إن له – شأنه شأن الأنبياء (c) - عطرًا مميزًا لا يخفى على أبيه (a). لذا كانت البشارة بما هو أسرع وأبلغ في التأثير.وقد عُبِّر عن ذلك العبق بـ(الريح) دلالة على قوة سرعة وصوله. فالريح عندما تُطلق يُراد بها الخفة والقوة وسرعة الانطلاق والنفوذ. ولهذا أكد يعقوب (a) عبارته التي أعلن فيها

عما أحس به بـ(إنَّ) و (اللام) في قوله في ضوء البيان القرآني: (إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ) كي يُعلن باعتقاد لا جدال فيه أنه كان محقًّا في كثرة سؤاله عن يوسف (a) وعدم يأسه من اللقاء به يومًا ما. وهو إعلان انتظمه جواب (لولا) المتجلي دلاليًّا من قوله تعالى: (قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ) المقدَّم – توكيدًا واهتمامًا وعنايةً – على (لولا) وشرطها في قوله تعالى: (لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ) إعلانًا مسبقًا منه عن استغراب الحاضرين من أهله أو جلسائه ممن لم يرافق قافلة الإخوة ، الذين قد يتهمونه بالتخريف أو الهجران أو الجهل أو ذهاب العقل والتركيز. فرد عليه هؤلاء الحاضرين - لحظة وصول البشرى – بقول مشحون بالمؤكدات وهي القسم (تالله) و (إنَّ) و(اللام). وقد ورد التوكيد هنا بقسم هو الأندر مقارنة بالقسمين المطردَين في الاستعمال (والله) و(بالله) كما ذكرت سابقًا[42] **(43)**، وهو استعمال ناسب استغراب هؤلاء الحاضرين. في قوله تعالى في ضوء البيان القرآني: (تَاللّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ) لبيان شدة النفور مما سمعوا من يعقوب (a) من جهة تمسكه بالتحري عن يوسف (a) ، والقطع بوجوه حيًّا في مكان ما ، واعتراضًا على مذهبه هذا ، وإفصاحًا عما في النفوس من إنكار لهذا التمسك ، وإضعافًا وإماتةً لما في نفس يعقوب (a) من آمال

32- **كلامه تعالى عن مجيء البشير (حامل القميص) وإلقائه القميص على يعقوب (a) وعودة بصره إليه ، ومحاججته أولئك المفندين ، واعتراف أبنائه بخطئهم مع أخويهم وطلبهم غفران الله تعالى بوساطة أبيهم ووعدهم بذلك:** قال تعالى: (فَلَمَّا أَن جَاء الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ، قَالُواْ يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ، قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيم) [96-98] ليس من الصواب أن يُقال عن (أنْ) الواقعة بين (لمَّا) الحينية والفعل (جاء) : إنها زائدة[43] **(44)**. فالزائد كل لغو يمكن طرحه من الكلام فلا يؤثر ذلك في دلالته[44] **(45)**. والصواب – عندي - أن تُعدَّ (أنْ) هنا (مزيدة) للتوكيد ، لا (زائدة). وثمة فرق كبير بين (مزيد) و (زائد) ، فالأول يكون لقصد بعينه ، والآخر – وهو في غير القرآن – يكون لغوًا لا قصد من وجوده. فلـ(أنْ) هنا دلالة رائعة جدًّا نبَّه عليه الأستاذ مصطفى صادق الرافعي الذي ذهب إلى أنَّ ذكْر (أنْ) هنا إنما جاء لـ((تصوير الفصل الذي كان بين قيام البشير بقميص يوسف وبين مجيئه ، لبُعد ما كان بين يوسف وأبيه (K). وأن ذلك كأنه كان منتظرًا بقلق واضطراب توكدهما وتصف الطربَ لِمقْدمِه واستقراره غنةُ هذه (النون) في الكلمة الفاصلة))[45] **(46)**.لامس القميصُ وجهه الكريم (فَارْتَدَّ بَصِيرًا) ورجع كعهده بقوته ونشاطه وحيويته وقوة بصره وسلامته. وهذا ما يشي به الفعل (ارتدَّ) ، فهو من الارتداد والعودة إلى العهد السابق. عندها أجابهم يعقوب (a) بعبارة مؤكدة بمؤكدَين هما (إنَّ) وتقديم الجار والمجرور (مِنَ اللّهِ) على المفعول به وصلته (مَا لاَ تَعْلَمُونَ) دلالة على أن حواره معهم – فيما مضى – وكثرة طلبه استفسارهم عن يوسف أولاً وعن (بنيامين) ثانيًا كان عن علم وفضلٍ من الله تعالى وحكمة وصبرٍ ، ولم يكن يصح من أحدهم - ولا من غيرهم - أن ينقض ذلك أو يرتاب فيه. وفي هذا الرد تذكير لهم بما قاله لهم سابقًا - عندما أنكر عليهم تثاقلهم من حزنه وتجدد أمله بلقاء ابنيه يومًا ما - في ضوء البيان القرآني: (إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُون) [86]فلما سلَّموا له بكل شيءٍ خضعوا للأمر الواقع وخلعوا لباس الكيد والمكر والعصيان والتمويه ، وهوَوا على أبيهم يطلبون إليه غفران ذنوبهم بشفاعته ودعائه إلى الله تعالى ، وقد اعترفوا له بأنهم خاطئون اعتراف المقر المعلن إقراره بخطئه الراجي العفو والصفح والمغفرة. فجاءت عبارتهم مؤكدة بمؤكدين هما تقديم الجار والمجرور (لَنَا) على المفعول به (ذُنُوبَنَا) ، و(إنَّ) التي تضفي بتوكيدها قوة راسخة على ما تدخل عليه ، ولغنتها شأنٌ في عمق هذا الترسيخ. فواعدهم أبوهم خيرًا وهو مطمئن قرير العين بسبب التغيير الهائل الذي حصل لأبنائه تجاه يوسف (a) وأخيه ، وأجابهم بقوله في ضوء البيان القرآني: (سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيم) ، وهي عبارة مؤكدة بثلاثة مؤكدات هي تقديم الجار والمجرور (لَكُمْ) على المفعول به (رَبِّيَ) ، و(إنَّ) ، وضمير الفصل (هو) دلالة على ترسيخ ما يُؤمل تحققه في نفوس أبنائه وجعْله واقعًا لا ريب فيه ، لأن الله تعالى هو الغفور الرحيم وهو مفيض اللطف والرحمة.

---

[42](42) دلائل الإعجاز254. وينظر: شرح الجوهر المكنون ، الشيخ أحمد الدمنهوري 87. ونحو المعاني ، د. أحمد عبدالستار الجواري 130.

[43](43) ينظر: الصحيفة (40) من هذا البحث.

[44](44) ينظر: الأصول في النحو2:207. وكتاب حروف المعاني ، أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي ، تح: د.علي توفيق الحمد59 . وبدائع الفوائد ، ابن قيم الجوزية محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي ، تح: هشام عبد العزيز عطا وزميليه1:100.

[45](45) ينظر: لسان العرب ، ابن منظور20:116 (لغو). والإتقان في علوم القرآن ، جلال الدين السيوطي1:535. ومواهب الرحمن في تفسير القرآن ، السيد عبد الأعلى السبزواري11:38. والهادي فيما يحتاجه التفسير من المبادي ، الشيخ هادي كاشف الغطاء196. والطبري النحوي من خلال تفسيره ، د. زكي فهمي الآلوسي140. والنحويون والقرآن ، د. خليل بنيان الحسون212.

33- **كلامه تعالى عن لقاء يوسف (a) بأهله أجمعين في مصر وتحقيق رؤياه ، وحمده الله تعالى أن هدى عليه إخوته بعدما فعلوا به ، ودعائه بشكر الله تعالى لما آتاه من علم إعجازي ورجائه القبول والصلاح بعد الوفاة:** قال تعالى: (فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاء اللّهُ آمِنِينَ ، وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَـذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاء إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ، رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِين) [99-101].وصل التدبير الإلهي بآل يعقوب إلى أن يلتحقوا بيوسف (a) ويجتمعوا معه في مصر. وقد ذكر الله تعالى التحاق الجميع (الأبوين والأبناء) بيوسف (a) في الفعل (دَخَلُواْ) الذي يصور لنا استعداد يوسف (a) لاستقبالهم وأنه كان يتوق لرؤياهم ليستقي من معين ودِّ الاجتماع بهم. إلا أن النص القرآني - هنا – عُني بذكر أهم من في هؤلاء الداخلين وهما أبوا يوسف (a) ، أو بعبارة أدق: أبوه وخالته لأن أمه ميتة[46] **47)**. فخُصَّا بالذكر ، وجاء ذكرهما مؤكدًا بوساطة تقديم الجار والمجرور (إِلَيْهِ) على المفعول به (أَبَوَيْهِ) لأنهما الأولى بالاحترام ، وهما الأكثر تأثرًا لابتعاده عنهما بدليل ابيضاض عينيه أسفًا على فراقه ، في حين لم يصب الإخوة شيءٌ لهذا الفراق كونهم هم من خطط له ونفذه. لذا وصف الله تعالى حدث الاجتماع هذا بالإيواء وهو في غاية العطف والتراحم والتقارب والتآلف الروحي ، فهو الآن مأوى لهما ومكانه مستقرٌ لهما. وبعد هذا الاجتماع والتآلف وجههم إلى دخول مصر – بمشيئة الله تعالى - منعمين آمنين. وجاء توجيهه هذا مؤكدًا بطريق اكتناف جوابِ الشرط (ادْخُلُواْ مِصْرَ ... آمِنِينَ) أداةَ الشرطِ وجملتَه (إِن شَاء اللّهُ). وهذا ضرب من التوكيد بتقديم ما حقه التأخير في غير هذا الموضع. فق قدِّم ما هو أهم وأعنى بالذكر وهو الجواب لأن الغاية من هذا لتوجيه جعلهم يقرون في مصر ويهنؤن بعد عناء الابتعاد ومشقة السفر. فالرؤيا قد صورت رفعة أبويه أصلاًوبعد هذا التوجيه رفع أبويه على العرش تكريمًا لهما وإعلاءً لشأنهما وإعلانًا لحقهما ومنزلتهما. وقد أخبرنا الله تعالى عن حالهم بعد هذا الرفع بعبارة مؤكدة بتقديم الجار والمجرور (لَهُ) على الحال (سُجَّدًا) في قوله تعالى: (وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا) دلالة على عظيم الشأن الذي صار عليه يوسف (a) ، وكرامة المكانة التي وصل إليها. فأخبر أباه بقوله في ضوء البيان القرآني: (يَا أَبَتِ هَـذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ). ثم أكد كلامه - لترسيخ ربط أذهان السامعين من أهله بين هذا الحدث وتلك الرؤيا التي قال عنها لأبيه: (يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِين) [4] - بقوله في ضوء النص القرآني: (قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا) بمؤكدين هما (قد) وتقديم الكناية عن المفعول به الضمير (الهاء) العائد إلى الرؤيا على الفاعل (رَبِّي) دلالة على تحقق ما رآه وصرف أذهان السامعين إلى الاعتقاد اليقيني - الذي لا يقبل أدنى ريب أو جدال – بحكمة الله تعالى وعنايته ورعايته وكيده وتمكينه ليوسف (a). ثم وصف لهم لطف الله تعالى به - لمَّا أخرجه من السجن وجاء بهم من البدو بعدما حلَّ بينه وبين إخوته من نزغ شيطاني وجفوة وقسوة وظغينة صرفت الرحمة عن قلوبهم – بأنه إحسان منه جل وعلا ، مؤكدًا وصفه هذا بـ(قد) في ضوء النص القرآني: (وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي) دلالة على ارتياحه وطيب خاطره وهدوء باله نتيجة هذا الإحسان. ثم ختم قوله هذا بعبارة مشحونة بالمؤكدات: بـ(إنَّ) في موضعين وبضمير الفصل (هو) في قوله تعالى على لسانه (a) : (إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاء إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) بيانًا لمدى إيمانه بتدبير ربه ولطفه لما يشاء ، ودلالة على الاهتمام الكبير بإيصال فكرة (أن ما يحصل ويجري ويقع إنما هو بعلم الله تعالى وعن حكمته جل وعلا) إلى أذهان أهله ولاسيما إخوته الذين كادوا لهثم ختم حواره هذا باللجأ إلى الله تعالى والتوجه إليه عز وجل مخاطبًا إياه بعبارة الحمد والثناء فابتدأها بـ(قد) دلالة على تثبيت ما بعدها وتحقيقه بقوله في ضوء البيان القرآني: (رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ) فقد تحقق له – بالفيض الإلهي – الملكُ والعلم من تأويل الأحاديث. وهما الغاية التي وصل إليها يوسف (a). فقد امتلك زمام إدارة ملك مصر والتصرف بالعدل والحكمة والتدبير بخيراتها وتوزيع مؤونتها. وكان سبيل ذلك معجزته الإلهية الكبيرة (تأويل الأحاديث). ثم أثنى على ربه مرة أخرى بعبارة الداعي الراجي لطف ربه ورحمته في الدنيا والآخرة ، فقال في ضوء النص القرآني: (فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِين).

34- **كلامه تعالى لنبيه محمد (h) بعد ذكر قصة يوسف (a) في شأن معجزة القرآن الكريم وأنه من عند الله تعالى لا من عند النبي (h) كما ادعى المبطلون ، وبيان موقف أكثر الناس تجاه هذه المعجزة وتوجيه النبي (h)**

---

[46](46) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية231.

لهم: قال تعالى: (ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُواْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُون ، وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِين ، **وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ، وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ، وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ ، أَفَأَمِنُواْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ، قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِين)** [102-108].

بعد ذكر الله تعالى تلك الأحداث التفصيلية الغيبية - التي مر بها يوسف **(a)** وأبوه مع إخوته – للرسول الكريم **(h)** ليفحم بها أولئك المبطلون الذين أرادوا امتحانه **(h)** بسؤاله عن تلك الأحداث ظنا منهم أنه لا سبيل له إلى معرفتها ، حثه الله تعالى على الصبر في دعوته ، وبين له بعبارة مؤكدة أن شدة حرصه وسعيه الحثيث لهداية الناس إلى طريق الحق وتصديق ما جاء به والإيمان بما يذكره لهم من أحوال الأمم السالفة وأحداث الماضين تجدي مع نفرٍ قليل آثروا الهدى على العمى ، ولا تنفع مع أكثر الناس ممن آثر العمى على الهدى ، وقد جاء هذا البيان الإلهي بعبارة النفي المؤكدة بـ(الباء) المزيدة في قوله تعالى: (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِين).

ولهذا النص الكريم وهو في نهاية هذه السورة المباركة ربطٌ وثيق بأولها ، إذ افتتحت بقوله تعالى: **(إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُون** ، نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِين) [2-3] فما يقصه الله تعالى على نبيه الكريم **(h)** بوحيه له من أخبار الأنبياء **(c)** ومنها قصة يوسف **(a)** والأمم الماضية إنما هو من الغيب الذي كان عنه من الغافلين لأنه لم يكن لديهم ولم يعش بينهم. وفي هذا ردٌّ على اليهود وسواهم ممن اتهم الرسول الكريم **(h)** بافتعال القرآن من عنده أو بأنه لا علم له بأحوال الأنبياء والأمم السابقة. فإنكارهم صدق النبوة ومعجزتها اقتضى الرد عليهم بنص مؤكد ردعًا وتبكيتا لهم.

وقد حث رب العزة جل وعلا نبيه الكريم **(h)** على تنبيه الخلق إلى أن هدايتهم في ضوء الدعوة السماوية الجديدة لا تستدعي مقابلاً ماديًا ، بل المطلوب هو الاتعاظ والأخذ بتعاليم دين الهداية والتمسك بها والسير على الصراط المستقيم بقوله تعالى: **(وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ)** وهي عبارة مؤكدة بتقديم الجار والمجرور **(عَلَيْهِ)** على نظيره **(مِنْ أَجْرٍ)** دلالة على أن معقد الكلام المكنى عنه بالضمير (الهاء) هو الإبلاغ بمنهج الهداية والرشاد والصلاح والرقي وقوامه القرآن الكريم وما يتصل به من امتدادات ومنظومات قيمية أخلاقية دائمة ، وهو الجانب الروحي الذي يسمو – بلا نسبة – على الجانب المادي المتصور عند الأكثرية. فما هو أسمى وأعنى وأهم يقدم على ما دونه. وقد ذكر الله تعالى - مقابل التفكير بالجانب المادي - الصفةَ السامية لهذا الإبلاغ وشأن هذا الإصلاح والبناء الجديد بما لا يقبل التشكيك والتزييف بعبارة مؤكدة بالقصر بوساطة (النفي وإلا) في قوله عز وجل: **(إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ)** لبيان شأن العالمين عند الله تعالى ورحمته ولطفه بهم على الرغم من أنهم معرضون معاندون ، وترسيخ أنهم أهل لهذا الذكر وحصره بهم لا بغيرهم من الخلائق ، ولصرف أي وصف آخر مضاد قد يُظَنُّ به لهذا التنزيل ثم ذكر الله تعالى أن كثيرًا من دلائل التوحيد والعظمة الإلهية شاهدة لهؤلاء المعاندين على وجوده تعالى يرونها ويمرون عليها إلا أنهم لا يؤمنون بها. وقد بيَّن جل وعلا عدم إذعانهم هذا بعبارة مؤكدة في قوله تعالى: **(وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ، وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ)** بتقديم الجار والمجرور **(عَنْهَا)** على الخبر **(مُعْرِضُونَ)** دلالة على أهمية تلك الآيات ، وأن الإعراض ينطلق عنها والصد يكون منها ، وعدم الإذعان يصير عندها. ثم بيَّن لرسوله الكريم **(h)** ولسواه حال هذه الأكثرية التي تدعي الإيمان بالله تعالى بأنه إيمان مشرب بالشرك بيانًا لقوله تعالى: (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِين). فالإيمان ليس إيمان اللسان لأنه متحقق ومبالغ فيه ، بل هو إيمان القلب والجوارح ، إيمان الخضوع المطلق للمثل والسماوية المطلوبة. فجاء ذلك بعبارة مؤكدة بـ(النفي وإلا) ، أي بأسلوب الحصر ترسيخًا وتحقيقًا لمعرفة هذا الضرب من الإيمان ، للحذر منه والتنبه إليه والتنبيه عليه وأخيرًا جاء الوعيد المناسب لهؤلاء المنافقين بقوله تعالى: **(أَفَأَمِنُواْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ)** بعبارة مؤكدة بتقديم الكناية عن المفعول به (الهاء) المتصلة بـ(ميم) الجمع على الفاعل **(غَاشِيَةٌ)** في موضع ، وعلى الفاعل **(السَّاعَةُ)** في موضع آخر دلالة على صرف الذهن إلى محور الحدث ومعقد الكلام ، وهو هؤلاء المنافقين الذين يُشربون إيمانهم بالله تعالى بشرك لا تحمد تبعاته. فقُدِّم ما هو أعنى وأهم ، وهذا من غايات التوكيد بالتقديم.بعدها جاء الإرشاد الإلهي للرسول الكريم **(h)** في بيان المنهج السامي للدين الإسلامي ومن كُلِّف نشرَه بقوله تعالى: **(قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِين)** المؤكَّد بالضمير المنفصل **(أَنَاْ)** المؤكِّد للضمير في الفعل **(أَدْعُو)** دلالة على حصر أصل التبليغ والهداية ومنطلق الدعوة بالرسول

الأكرم (h) بدليل قوله في ضوء البيان القرآني: (**أَدْعُو**). فما أدعو إليه هو الحق وليس لغيري – إلا من اتبعني – نصيب في هذه الدعوة.ولهذا النص الكريم المؤكد صلةٌ جليةٌ بقوله تعالى في مفتتح السورة: (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِين) [3] وبقوله تعالى في نهايتها: (ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ) [102] تتمثل بأن الرسول الأكرم (h) مختارٌ مرسلٌ بالحق من عند الله تعالى وقد خاب من شك وافترى ، وعارض واجترى.

35- **كلامه تعالى لنبيه الأكرم (h) عن صفة الرسل الخلْقيةِ الرئيسة ، وبيان فضل الآخرة على الدنيا وذكر منزلة الرسل عند الله تعالى ، وتوضيح الغاية من ذكر قصصهم:**

قال تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَواْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ، حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ، لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَـكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُون) [109-111].

أخبر الله تعالى نبيه الأكرم (h) بقوله: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم) - بعبارة الحصر المؤكدة بـ(ما) و (إلا) من جهة ، وبتقديم الجار والمجرور (مِن قَبْلِكَ) على المفعول به المقصور عليه (رِجَالاً) من جهة أخرى – أن صفة الرسل الخلْقية الرئيسة هي الرجولة بكل ما تشي به هذه الكلمة من معانٍ إيحائية من قوة وعزيمة وصبر وحكمة وجهاد وقيادة وتبليغ وما سوى ذلك ، وألاَّ سبيل إلى غير ذلك أبدًا. وأراد له سبحانه وتعالى أن يتأسى بمن سبقه من الرسل والأنبياء ، وأن يعلم أن الجميع إنما بلَّغوا في ضوء الوحي وبموجب الرسالة الإلهية إليهم. وهذا يرد على كل من ادعى على الأنبياء من جهة أو على الرسول الأكرم (h) من جهة أخرى بأن الرسل والأنبياء (c) إنما هم رسل الله تعالى يُوحي إليهم ، وأن الرسول الأكرم (h) هو الغاية ، وأنه قد بلَّغ خلاصة الرسالات السماوية ، وأن آيات ذلك ظاهرة ، وأن مصير من عاند وناوأ الرسالات السماوية السابقة مكشوف معروف. وهذا ما رجاه أولئك المعاندون في الحياة الدنيا وهي زائلة فانية لا تعني شيئًا ذا بال قبال الحياة الآخرة. لذا ذكر الله تعالى صفة الدار الآخرة بعبارة مؤكدة بـ(اللام) في قوله عز وجل: (وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَواْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ) دلالة على عظيم شأنها وجليل قدرها , وإزالة لما يخطر في بال أولئك المعاندين من تقليلٍ لشأنها أو ارتياب في حقيقتها. ثم ذكر تعالى رحمتَه برسله ولطفه وعنايته بمهامهم وما يبلِّغونه وهم يرَون أقوامهم قد كذَّبتهم وانحرفت عن قيم الحق التي يدعون إليها. فجاء التعبير القرآني عن موقفهم من ذلك بالفعل (ظنَّ) الذي لا يفيد العلم المقطوعَ به ولا الاعتقاد المجزوم به. على الرغم من عدم تأثير ذلك في سمو الدعوة السماوية. وذكر ما ظنوه بعبارة مؤكدة بمؤكدين هما: (أنَّ) و(قد) في قوله تعالى: (وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ) وهو ظن مشروط ، أي أنه بمجرد أن حصل عند الرسل (c) جاءهم نصر الله تعالى ، وتمت نجاة من شاء الله له ذلك ، وحلَّت اللعنة على القوم المجرمين المعاندين.وأخيرًا انتهت السورة المباركة بذكر الغاية الكبرى من بيان قصص الرسل والأنبياء (c) في قوله تعالى: (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ) وما حلَّ بهم من أقوامهم وذويهم ، ممن ورد ذكرهم في القرآن الكريم . وعُبِّر عن هذه الغاية الجليلة بالتوكيد بـ(اللام) و (قد) المجتمعتين من جهة وبتقديم خبر (كان) وهو (فِي قَصَصِهِمْ) على اسمها (عِبْرَةٌ) دلالة على أهمية ذكر تلك القصص وما يتمخض عنها من دروسٍ وعبر لأولي الألباب. وكل ذلك بوحي الله تعالى ، لا افتراء فيه لا زيادةً ولا نقصانًا ولا تناقضًا ولا مستحيلاً ، ليأخذ بيد المؤمنين إلى سلوك سبيل الهدى والتقى والرحمة. وأود أن أختم هذا الجهد المتواضع - الذي أطمع أن يكون لي خير ذخيرة في اليوم الذي لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى اللهَ بقلب سليم - بالقطع الذي لا ريب فيه وهو أن الله تعالى أعلم بمراده في كتابه وليس لنا من ذلك إلا ما وفقنا الله إليه ، فإن أصبت فتلك الغاية المنشودة ، وإن سهوت أو أخطأت فأنا مخلوق والكمال للخالق جل وعلا ، وهو الغفور المثيب.